دراسات فلسطينية



نظرة في أحزاب إسرائيل



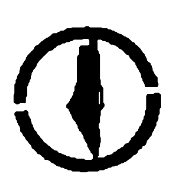
الدكتور
أسعد رزوق



منظمة التحرير الفلسطينية
مركز الابحاث

نظرة في أحزاب إسرائيل

الدكتور
أسعد رزوق



منظمة التحرير الفلسطينية - مركز الأبحاث
بيروت

كانون الأول (ديسمبر) ١٩٦٦

محتويات الكتاب

تصدير عام

هذه المقالة لا يمكنها ان تدّعي الأسبقية في دراســة الحياة الحزبية السياســـة في اسرائيل « عن كثب » أو « بصورة مباشرة »، كما هو الاتجاه السائد اليوم بين أساتذة العلوم السياسية وعلماء الاجتماع والإحصائيين . وهي بالتالي لا تهـدف إلى مجرد تقديم المعلومات الإحصائية عن الأحزاب السياسية الاسرائيلية أو عرض نتائج الاستفتاءات المتكررة التي يجريها دارسو ظاهرة الأحزاب السياسية في اسرائيل . هذه المعلومات والنتائج هي في حدّ ذاتها متوافرة إلى حد بعيد. ويمكن لمن يشاء ذلك الاطلاع عليها في الدراسات والأبحاث والمقارنات ، وحتى في النشرات الدعائية والكتب الإحصائية وغيرها من مصـــادر المعلومات والارقام والمعادلات . فقـــد افتتن ُعلماء الاجتماع والسياسة والإحصاء بدراسة التركيب الاجتماعي والسكاني في اسرائيـل افتتاناً وصل بهم لدرجة الهَوَس . وخصّوا ظاهرة الأحزاب السياسية بكثير من العنـاية والبحث والتنقيب . فعمدوا إلى تصنيفها حسب المواقف التي تتخذها تجاه مسائل معينـــة في

الاقتصاد وفي السياستين ، الداخلية والخارجية أو حسب عزمها وتصميمها على اتباع سياسة تحريضية وهجومية أو « وقائية » تجاه الدول العربية المحيطة بهـــا . ودرسوا التركيب المجتمعي لعضوية تلك الأحزاب ومعدّل الانتماء الطبقي في كل منها ، ثم انصرفوا يبحثون عن التطابق بين سياسة ممثلي الحزب في الكنيست وسياسة الاعضـــاء العاملين والقادة الحزبيين خارج الكنيست والحكم . وانتقلوا من ذلك كله الى محاولة تصنيف الاحزاب على أساس اتجاهاتها العقائدية التي تتراوح بين طرفي اليمين واليسار . توقف بعضهم أمام ظاهرة التعدّديّة في الاحزاب مندهشـــاً ومتعجباً ، وراح البعض يُبشّر بتلك التعدّديّة كمظهر حيّ من مظاهر الديمقراطية في اسرائيل . ولا يتمالك من يطّلع على هذه الدراسات من التعبـير عن دهشته وتعجبه لكثرتهـــا ووفرة التكرارات التي ترد في العديد من افتراضاتها ونتائجها ولتجاهلها المتعمد لكثير من النواحي الهامة في الموضوع . ولربما وجـــد هؤلاء الدارسون والباحثون في خليط شعب إسرائيل العجيب وتركيبه المتنافر مادة دسمة لتحقيق نظرياتهم والتأكـــد من صحتها « وموضوعيتها » . وليس بمستبعد أن يكون الكثيرون منهم قد اندفعوا نتيجة حماس رومنطيقي وعاطفي لاكتشاف ما كانوا يعللون النفس باكتشافه أو يتشوقون لرؤيته وابرازه ، فجاءت إسرائيل بتركيبها العجيب ووضعها المترجرج تقدمه لهم باسم « التعمير » و « التطور » أو « التنوع الايديولوجي » .

إنما لا يعني ذلك ، والحال هي على ما هي عليه ، تجاهل تلك المعلومات والإحصاءات والنتائج أو عدم الإلتفات اليها وأخذها بعين الاعتبار . بل العكس هو الصحيح . فلا بد من الاعتماد على تلك المعلومات والإحصاءات كلما دعت الحـاجة لذلك في سياق بحثنا التالي . والواقع الذي لا يمكن طمس معالمه ـ كما سيتبين لدينا فيما بعد ـ هو أن النظرة التي تعرضها هذه الدراسة مستمدة إلى حد بعيد من تلك المعلومات والإحصاءات . إذ انه لا غنى عنها في تركيز البحث وتوفير قاعدته المستمدة من الوقائع والاعمال والأقوال التي لا سبيـل إلى الشك بصحة مصدرها أو الطعن بصدق نواياه تجـاه الحفاظ على كيانه أو إبقاء صنيعته على قيد الحياة . ولا غرو ، فنقطة الانطلاق تبرز امامنا من خلال تلك المعلومات التي تتعلق بنشأة الأحزاب الاسرائيلية وتطورها قبل قيام اسرائيـل ، اي ، بالجذور الأوروبية والتاريخية لتلك الأحزاب . إذ نجدها قد رسمت معالم طريقها في تلك المرحلة وتبنت لنفسها الدور الذي سوف تلعبه فيما بعد ، في الحيـــاة السياسية لإسرائيل . وليس بخاف علينا الإلتفات إلى العديد من المسائل الأخرى التي تمت بصلةٍ قريبةٍ أو بعيدة لقيام اسرائيل ووضعها المترجرج في هذه البقعة العربية من العالم ، وعلاقة ذلك كله بظاهرة الأحزاب في الحياة السياسية هناك .

من هنا كان عنوان هذه الدراسة : «نظرة في أحزاب اسرائيل» ، اي ، محاولة للنظر إلى الحياة الحزبية في اسرائيل من زاوية

رئيسية معينة ، ألا وهي واقعة جذور تلك الأحزاب ونشأتها الاوروبية وطابعها الصهيوني ، وما يستتبع عن ذلك من نزعات استعمارية وتوسعية ونوايا اغتصابيـة وعدوانية تكمن في طبيعة الفكرة الصهيونية وتبرز في صورة لا أخلاقية سافرة من خلال ظاهرة تلك الأحزاب : منذ ان نشأت في كنف المجتمعـات الاوروبية وترعرعت في مناخ أوروبا الفكري أوعلى هامشه وما لبثت ان اصبحت من صميم الحركة الصهيونية العالمية . متوسلة كل ما امكنها توسله : من الدّين إلى الايديولوجيا ، من مطامع الاستعمار الغربي ووعوده إلى عقدة « شعب الله المختـار » الذي اصطفى نفسه للاستعلاء على بقية الشعوب الغريبة عنه ، حسب زعمه واصراره ، ورفض اغتنام الفرص العديدة التي أتيحت له للاندماج في تيار حياة المجتمعات التي اقام بين ظهرانيها ، او الانصهار في بوتقتها والتمتع بكافة الحقوق المواطنية والاجتماعية والسياسية . فاختار بالتـالي العزلة والهامشية ، طوراً مرغماً وطوراً بمحض إرادته ، لكي يجـد المبرر والمتنفس لنواياه ومزاعمه ، ولكي يستغل ما تمّ له من نفوذ اقتصادي وفكري ومالي ويعمل جاداً على تحقيق ما أقنع نفسه به ، دون سواه . وهو في كل ذلـك يبـدو وكأنه غير عابىء بحقوق السكان الأصليين والمقيمين في بلادهم أو يحاول التهرب من مسألة حق الشعب في تقرير مصيره والاحتفاظ بأرضه ووطنه الأم .

ولطالما تسترت الدعوة الصهيونية خلف اقنعة التعاليم الدينية

اليهودية ورسالتها الأخلاقية والمناقبية، لتظهر بمظهر إنساني على مسرح العالم وتستدر عطف الشعور الديني ، مستغلة ذلك كله لتحقيق مآرب هي أبعد ما تكون عن الدين والأخلاق واحترام حقوق الآخرين . ولطالما غلّفت « مزاعمها » الحقيقية بغلافات « التعمير » و « الرواد » و « أرض الميعاد » وما تيسّر لها من التفسيرات التوراتيـة ، لكي تخفي ما تضمره من نوايا استعمارية واغتصابية وتضلل الرأي كمقدمة لاستمالته نحوها وكسب عطفه وتأييده لـ « قضيتها » المزعومة ، أو للحؤول دون اطلاعه على الوجه الحقيقي للمسألة . وقد توفرت الحقائق بصورة قاطعـة تبادر من يستطلعها بوقائع عنيـدة وأصيلة لا يرقى الشك إلى صحتها ولا يمكن التعامي عنها مطلقاً .

على ان ذلك لا يعني أبداً رفع المسؤولية التي تقع على عاتق المجتمعات الاوروبية في اتاحة الفرصة أمام أعضائها من اليهود لكي يندمجوا في بوتقة حياتها ويعتبروا أنفسهم جزءاً منها . ولا نكون مبالغين البتة لو حاولنا النظر إلى الصهيونية أحياناً على أنها وليدة الظروف والأوضاع الاوروبية الخاصة إلى حدّ بعيد ، ولو عمدنا كذلك إلى اعتبار « المشكلة اليهودية » ، التي اتخذت لنفسها الصهيونية كطابع سياسي واستعماري ، مشكلة اوروبية بالدرجة الأولى . فمن الضروري ، إذاً ، أن ننظر إلى تلـك المشكلة بحكم علاقتها بنشـأة الأحزاب والمنظمات السياسية والإرهابية من ضمن إطارها التاريخي والاجتماعي والفكري العام،

ذلك الإطار الذي يكشف لنـــا الكثير من نواحيها الخفيّة ويسلّط عليها الضوء الصحيح . فالصهيونية وأحزابهـا ظاهرة من ظواهر التوسع الاستعماري تتخفى وراء قنـاع كثيف من المثالية لإبعاد الشكوك عن نواياها الفاضحة .

كما وانه لا يمكننـــا في حال من الأحوال تجاهل الدور الأساسي الذي لعبه ويلعبه العامل الاقتصادي والمالي في المسألة اليهودية وفي قيام الأحزاب والمنظمات الصهيونية من جهة وفي إذكاء الشعور المعادي للسامية من جهة ثانية ، ذلك الشعور الذي لازم الانظمة الرأسمالية في المجتمعات الاوروبية في احيان كثيرة. فقد كان من الممكن والمتوقع ايضاً ان تصفي اللاساميـة نفسها بنفسها لو تحققت تصفية النظام الرأسمالي في المجتمع الغربي آنذاك ولم يعمل اليهود على تقوية ذلك النظام واعتبار انفسهم من صميمه ودعائمه ، متى بدا لهم ذلك مناسباً أو منسجماً مع مصالحهم . ولربما ساهمت هذه القضية الى حد ما في دفع الكثيرين من المثقفين والمفكرين اليهود في شرقي اوروبا وغربيهـــا للبحث عن مخرج لنواياهم الصهيونية عبر المذاهب الاشتراكية والماركـسية أو عن ملجأ لنزعتهم المثالية هرباً من واقعهم الذي ساهموا الى حد بعيد في رفضهم التصالح معه ومع العـالم من حولهم أو في إصرارهم على عدم الانسجام والاندماج في المجتمعات التي ولدوا وعاشوا في ظلها . وكانت المذاهب الماركسية والاشتراكية آنذاك قـد جمعت حولهـــا الكثير من المعتنقين والاتباع والدعاة – اي في

النصف الثـاني من القرن التاسع عشر . وأغلب الظن ان اليهود الذين نادوا بالاشتراكية في ذلـك الحين وحاولوا إبراز جذور تلك الاشتراكية في الدين اليهودي وتبريرها انطلاقاً من نظرتهم التاريخية لأنفسهم والعالم ، لم يتمكنوا ـ بل ربما لم يكن في نيتهم ابداً ، انسجاماً مع مناخ ذلـك العصر ـ من الفصل بين التعاليم الاشتراكية والدعوة الصهيونية في سياستها الخطرة . فقد وجد الكثير منهم في الأفكار التقدمية والثورية مطية لستر الكثير من مزاعمهم وإظهارها بمظهر السعي وراء تحقيق العدالة والمساواة وتعمير العـالم والأرض لتصبح وطن الإنسان ويعم الخير في ربوعهـا .

وهكذا تسنى للصهيونية ـ بحكم نشأتها آنذاك وبحكم ميل الكثيرين من المفكرين اليهود الى الخروج على مجتمعاتهم ومخالفة العرف والتقليد للظهور بمظهر التقدم والتحرر ـ ان تحقق نوعاً من التحالف المزيف بين مزاعمها الظاهرة ونواياها الخفية وبين التعاليم الاشتراكية والماركسية ،وعلى الأخص فيما يتعلق بالناحية التحررية والنزعة الإنسانية والاخلاقية والثورية التي بشرت بها الماركسية في ذلـك الحين . والحق ان الصهيونية حاولت ولا تزال تحاول استغلال كل ذلك لغاياتها الخاصة. ولسوف تبرز هذه المفارقة العجيبة في الجمع بين الصهيونية في عرقيتها واستعماريتها والإشتراكية الأصيلة في مناقبيتها وإنسانيتهـا الصميمة حين نتناول بالمعالجة مسألة الطـابع الاشتراكي والتقدمي للاحزاب

السياسية في اسرائيل ويتبين لنا مدى التزييف والتبـاين الذي يحصل حتماً من مسألة الجمع بين الضدين اللذين يلتقيا على صعيد الحياة الحزبية في اسرائيل .

وثمة مسألة اخرى لامفر من أخذها بعين الاعتبار حين نلقي هذة النظرة على الأحزاب في اسرائيـل ، ونعني بها التركيب السكاني العجيب والخليط الجنسي والثقـافي الغريب الذي تقوم اسرائيل على اساسه وترتع وسط تناقضاته ، فيضفي بدوره على مجتمعها طابعه الخاص والذي يتميز بالتنافر والاضطراب والتنافس ويعج بالتناقضات من كل حدب وصوب . ومما لا شك فيه ان الواقع المجتمعي والسكاني – وبالتالي السياسي والحزبي – للدولة المصطنعة يحفـل بهذه التناقضات التي يزداد انعكاسها على مسرح الحياة السياسية والاجتماعيـة والفكرية يوماً عن يوم ويتبلور استقطابها فيشتد التوتر فيها بينها ويستحكم العداء . ولا نستغرب مطلقاً هلع قادة الصهيونية وقلقهم حـين يكتشفون ان واقعهم يهدد بالانفجار وانهم يجلسون على قاعدة هي بمثابة القنبلة الموقوتة التي ستنسف مقومـات وجودهم من الداخل . ولا مندوحة لنا من إظهار التسويات والمفـاصلات والتطبيقات التي يلجأون إليها للتخفيف من حدة الأزمة المتوترة وتغطية الوجه الحقيقي لكيانهم المليء بالتناقضات وواقعهم القائم على الاغتصاب.

ولئن شاء البعض اعتبار هذا الواقع الحافل بالتناقضات ،

والذي يقوم ـ من جملة ما يقوم عليه من الأسس المصطنعة ـ على اسوأ انواع التميز العنصري والجنسي والثقافي ، بانه من مظاهر الحيوية والنشاط و « الديمقراطية » ، فان هذا الواقع الصارخ سوف يبين خطأهم وتحيزهم ويدحض اعتقادهم ومزاعمهم من تلقاء نفسه . فقد لا يمر يوم واحد دون ان تحمل الانباء ما يدل على ذلك بصورة قاطعة . وتكفي الاشارة هنا ـ على ان نعود لتناول هذه المسألة بالتفصيل في سياق البحث ـ إلى اتساع الهوة بين اليهود المتحدّرين من أصل اوروبي (الاشكنازيم) واليهود الذين جاؤا من بلدان الشرق (السفارديم) وازدياد حدة التوتر بين الفئتين داخل المجتمع المتنافر . لعل ذلك يكفي كتذكير بما يخبئه المستقبل القريب من احتمالات ومفاجآت تكمن بذورها في الواقع الحالي وتنعكس على سياسة الأحزاب والدولة . وقد تؤدي إلى توسيع الشقة بين تلك الفئـات اكثر فاكثر وتذكي نيران التعصب لترتد الصهيونية على نفسهـا وتعلن افلاسها وسقوطها من الداخل .

ولا يغرب عن بالنا ، حين نعمد إلى تبيان ذلك الوضع الشاذ في تناقضاته والأخطار التي تحف به من الداخل وتعمـل على تفسيخه وتقويض دعائمه ، ان الاتكال أو الانتظار وحده غير كفيل بإعادة الحق إلى نصابه والمسلوب إلى أصحابه. بـل على العكس تماماً : لا بديـل هناك للعمل الحاسم الذي يستبق « الزمن » ويعجل الانهيار ، تاركاً خلفه التغني بمسألة التناقضات

والتنافرات العجيبة أو انتظار حدوث المعجزات .

تبقى هناك مسألة بالغة الأهمية تتعلق بعلاقـــة الأحزاب الاسرائيلية بالدين « ومسايرة » هذه الاحزاب للترمّت الديني ومختلف الفئات الدينية المتعصّبة من أجل الوصول إلى الحكم والبقاء في كرسيه . وسوف تبدو هـذه المساومة والمفاصلة في أجلى مظاهرها من خلال محاولة الأحزاب الإسرائيلية التي تبشر بالعلمانية والديمقراطية مسايرة شعور رجال الدين المتزمتين تحت ستار الحفاظ على الوضع الراهن وعدم قلب التوازن المترجرج في شكل الحكومة الإئتلافي ولإقناع الناس والعالم أجمع بأسطورة التعايش السلمي بين مختلف الفئات والجنسيـات والاتجاهات . فالمسألة الدينية وثيقة العلاقة بنشأة الصهيونية وهي بالتالي تلعب دوراً لا يستهان به في الحياة السياسية وتمت بصلة وثيقـــة إلى سياسة الاحزاب داخل اسرائيل وخارجها . فطالما تضع الحكم المقلقل في مأزق دائم ، لا يتم الخروج منـــه إلا على أساس التسويات والهبات والتراجعات أو توزيع المغانم والمكاسب السياسية والمادية . فالدولة التي يشير البعض إلى ديمقراطيتها بالبَنَـان لم تجد حاجة لوضع دستور دائم يكون بمثابة الأساس لتلك الديمقراطية . بل ما زالت تتقاذفهـا الأهواء والنزعات والآراء المختلفة — صورة طبق الأصل عن تركيب سكانهـــا العجيب الغريب — متأرجحة بـــين الثيوقراطية الدينية حيناً والعلمانيّة الليبراليّة في الظاهر حيناً آخر . هذا التأرجح ينعكس

بصورة جلية في برامج الأحزاب وفي تنازلاتهـــا الكثيرة عن معتقداتها لكي تحافظ على الوضع الراهن وتبدو بمظاهر الاستقرار والتعايش السلمي والتقدّم .

وليس من قبيـــل المغالاة القول بأن الأحزاب الاسرائيلية تسخّـر الدين لمآربها السياسية ولتحقيق المكاسب الانتخابيـة ، وتعمد إلى المماطلة في التنازل عن مطـالب الفئات الدينية لكي تحول دون تصدّع الحكومة الائتلافيـــة وخوفاً من حصول الاضطرابات الدينية العنيفـة . والأحزاب الدينية ليست أقل صهيونية من الأحزاب العلمانية والاشتراكية ، بل قد تصالحت مع فكرة اقامة الدولة الصهيونية قبل قيامها ؛ إنمـــا لا زالت تعلل النفس بإقامة تلك الدولة على أسس توراتية وتلمودية. وعلى الرغم من تعاليمها نراها تشترك في الحكومة الائتلافية وتماشيهـا في الكثير من سياساتها ، معترضة بين الحـين والآخر على أمور شكلية لا تبدل الكثير من موقفها حيال الدولة كدولة . وقد مضت الأحزاب الأخرى من جهتها إلى حد إيجاد نوع من التطابق المصطنع بين اليهودية كدين والصهيونية كمخطط سياسي يرجع إلى منتصف القرن التاسع عشر ويرمي في جوهره إلى إقامـــة دولة يهودية في فلسطين . وهنا تبرز علاقة الأحزاب الصهيونية بالمنظمات الصهيونية العالمية ، إلى جانب ادعاء اسرائيل بأنهـــا تمثل يهود العالم أجمع ودعوتها المستمرة لهؤلاء بالعودة إلى اسرائيل « لتعمير أرض الميعاد » ! ويتبين لنا الدور البارز الذي تلعبـه

حملة الاستجداء والاستغاثة في جميـع أنحاء العالم ، إذ هي تبدو بمظهر من يجمع التبرعات في سبيل العمران والتقدم ، بينا هو في الواقع لا حياة له بدونها . فلولاها لما تسنى للاقتصاد المضطرب أن يستمر على قيد الحياة .

لا بدّ ، إذن ، من التوقف عند هذه المسألة للنظر في مدى علاقتها بطبيعة الأحزاب الاسرائيلية ودرجة تأثيرها على الحياة السياسية بنوع خاص . وسوف تتضح معظم ملابساتها البارزة في سياق البحث وتساعـد بالتالي على إظهار تلك الأحزاب على حقيقتها الاستعمارية ، وإبراز ارتباطاتها خارج اسرائيل .



من ضمن الإطار المشار اليه أعلاه تنطلق هذه الدراسة إذاً محاولةً إلقاءَ نظرة على وضع الأحزاب السياسية في اسرائيل وإبراز طابعها الصهيوني الخطر : من خلال برامجها السياسيـــة وجذورها التاريخية في اوروبا الشرقية وعلاقاتها المتينة بالمنظمات الصهيونية العالمية خارج اسرائيل ، ومن خلال صلاتهـا ببعضها بعضاً وتنظيماتها ومجالسها الخاصة واتحاداتها التي تبدو على شاكلة دولة ضمن الدولة ، وأخيراً لا آخراً ، من خلال نظرتهـــا إلى حقوق العرب في بلادهم وتجاهلها لكل ذلك بتأييدهـــا لتدفق الهجرة وتشجيعها للاستيطان والاستعمار ، تحت ستار استصلاح الأراضي وتعمير البلاد وري الصحاري القاحلة .

ولا يفوتنا أن نلقي نظرة فاحصة على الطابع الايديولوجي المزعوم لهذه الأحزاب واتخاذها للآراء والمعتقدات التقدميـة ذريعة لتبرير نواياهـا العدوانية ـ الاستعمارية وللظهور بمظهر أخلاقي وتقدمي يعود على اسرائيل بالعطف والتأييد والمساعدات ويتيح لهـذه الأحزاب أن تقف الى جانب الأحزاب التقدميـة الكبرى في الخارج وتشترك في مؤتمراتها الدولية ولجانها التنفيذية، محاولة بسط نفوذها وسيطرتها على كل ما أمكنها ذلك، باسم الاشتراكية والعدالة والتقدم، أو تحت ستر تضامنها مع الحركات اليسارية في العـالم ومدافعتها عن القيم الانسانية التي عملت على الاستهتار بها وتحطيمها بيُمناها.

كل ما تقدم يؤدي بنا حتماً إلى اكتشاف المفارقة الكبرى في كل ما يتعلق بهذه الأحزاب أو يمت اليها بصلة ما، وبالتالي الى فضح أسطورة تقدميتها القائمة على حساب حقوق الغـير والمساعدات المالية والمعنوية التي تستجديهـا من الخارج. ليس هذا فقط، بل سوف يتبين لنا بصورة قاطعـة لا تدع مجالاً للشك والتردد ان الغالبية العظمى من هذه الأحزاب هي صهيونية أولاً وآخراً، وانها، وإن اختلفت ظاهرياً وانشقت عن بعضها بعضاً، تتفق حول المسائل المصيرية الكبرى التي تتناول كيان اسرائيل ومقوماتها الصهيونية والعدوانية، وبالتالي في موقفها إزاء حقوق شعب فلسطين العربي والإبقـاء على الاحتلال تحت ستار التعمير والاستيطان والتقدم.

كلها تقريباً تدعو لإقامة علاقات متينة مـع اليهود خارج إسرائيـل ، ولا عجب في ذلك حين تتذكر انها ترتبط بأصلها ومنشأها الغريب عن طبيعة البلاد الأصلية وتستمد منه مقومات استمرارها في العدوان والاغتصاب . كلهـا تؤيد فتح أبواب الهجرة على مصراعيها وتشجيع الاستيطان ، لأنها تريد اعتبار نفسها أرض ميعاد ليهود العالم أجمع،مع العلم ان معظم الأحزاب الأوروبيةالنشأة لا يزال لها فروع ومنظمات في تلك البلاد تلتقي وإياها حول النوايا العدوانية والاستعمارية وتمد إليها يد المساعدة بسخاء وأريحيَّة . أفلا يجوز لنا أن نعتبر هذهالأحزاب، والحالة على ما هي عليه ، ممثلة لطراز جديد وخطير من الاستعمار الذي يستهتر بحقوق الشعوب في تقرير مصيرها ويعمل جاداً على حشر المهاجرين وتدفقهم وتشجيع زيادة النسل لكي يتسنى له تبرير مراميه التوسعيَّة وتركيز كيانه القائم على العدوانوالاغتصاب ؟ وما الذي يتبقى من الحزب كظاهرة سياسية ضمن النظـام السياسي القائم لدولة ما ، اذا كانت هذه الأحزاب بعيدة كل البُعد عن المعنى المتعارف عليه للحزب السياسي ، همها المساومة على كل شيء لتثبيت عدوانها وترسيخه والظهور بمظهر ديمقراطي فريد من نوعه يتوسل كل قناع وعقيدة ليقنـع العالم بأنه من حصون الديمقراطية المنيعة التي تدافع عن أسمى القيم الانسانية وتشكل العنصر الأساسي في استقرار المنطقة وأمنها وسلامها ؟

ان ذلك كله يشكل بلا شك مظهراً خطيراً من مظاهر

اللقاء الفاضح بين الاستعمار في جميع صوره وأشكاله وبين تلك الأحزاب السياسية ، التي تدين بالولاء للاستعمار في أصلهـا ومنشأها وتخدم مصالحه في تنفيذ سياستهـا ، لكي يتـنى لها البقـاء وتتمتع بالحماية وتمضي في تحقيق نواياها العدوانية .

في نظرية الأحزاب السياسية عامة

في كتابه عن الأحزاب السياسية[1] يحاول موريس دوفيرجيه (الاستاذ في معهد الدراسات السياسية في جامعة باريس) ان ينظر إلى ظاهرة الأحزاب في المجتمع من زاوية معينة لا تخلو من الطرافة والفائدة ولا تنقصها الموضوعية والتركيز . فهو ينطلق في دراسته محاولاً دحض الافتراض الشائع بان « الأحزاب هي هيئات عقائدية في الدرجة الأولى » ، أو كما كتب بنجامين كونستان عام ١٨١٦ يقول إن « الحزب هو جماعة من الناس تعتنق مذهباً سياسياً واحداً ». وقد جاء دزرائيلي ليصدر حكماً مماثلاً يكاد يكون صدىً وتكراراً لذلك القول: « الحزب هو الرأي المنظّم » . ويمضي دوفيرجيه في تقديم دراسته المذكورة محاولاً تعيين موقفه وتوضيح وجهة نظره في التعرف على ظاهرة الحزب السياسي : فيعمد إلى تبرير رفضه للتصور الليبرالي الذي تتبناه الغالبية العظمى من الدراسات، إذ هي تعنى اكثر ما تعنى بتحليل عقائد هذه الأحزاب وتنظر إليها في الدرجة الأولى كجماعة عقائدية موحدة . ومن ثم ينتقل إلى إبداء بعض الشكوك والملاحظات على التصور الماركسي

للحزب كطبقة وما يستتبع ذلك التصوّر من دراسة لعلاقة الميل السياسي لدى الفرد بمستوى المعيشة ونوع المهنة التي يمارسها الفرد أو الثقافة التي يملكهـا ويتمتع بها . وعلى الرغم من إقرار المؤلف بصحة التميز الماركسي بين البورجوازية والبروليتاريا من ناحية دلالته على «حالة ذهنية» و«موقف اجتماعي» او «طريقة في الحياة» ولكونه يساهم في إثارة بعض المسائل التي تتعلق بتركيب الأحزاب ، على الرغم من ذلك الاقرار ، نجده يختـار هدف دراسته بطريقة محايدة تسعى لتحقيق مقـدار كبير من الموضوعية . فهو يبغي دراسة المؤسسات الحزبية ومكانهـا في جهاز الدولة ـ اي انه يركز اهتمامه على دراسة الطابع «التشريحي» للاحزاب من زاوية تركيبها وبنائها العضوي الخاص ؛ لاعتقاده الراسخ بان « الاحزاب الحاضرة تتميز بطبيعة تنظيمها اكثر مما تتميز ببرامجها او الطبقة المجتمعية التي ينتمي إليها اعضاؤها » (ص. XV ! من المقدمة) .

حين نحاول النظر الى أحزاب إسرائيل من خلال هـذا المنظور الذي يقترحه دوفيرجيه ، ومن خـلال ما يعرضه في مقدمة كتابه عن مسألة نشأة الأحزاب السياسية والإطار الذي يرافق عملية تكوينها من الناحيتين: (١) البرلمان وهيئة الناخبين (اي من الداخل) و(٢) النشأة الخارجة عن نطاق البرلمانات والهيئات الناخبة ـ مع العلم بصعوبة تطبيق هذا التقسيم عملياً ، على حد قوله ـ تتكشف لنا كثير من الملابسات التي تحيـط

بنشأة الأحزاب الاسرائيلية وتكوينهـا والخصائص التي تميز طبيعتها وتركيبها وتنظيمها . ونجد انفسنا مرغمين على القبول بالتمييز بين النشأة البرلمانية والنشأة الخارجة عن نطاق البرلمانية والشرعية ، إذ تزودنا الأحزاب الإسرائيلية بأصدق شاهد يؤيد صحة هذا التقسيم ودقته ، ويملي علينا بدوره ـ النظرة التي نحن بصددها . فهو حين يعدد العوامل اللابرلمانية التي تلعب الدور الرئيسي في تكوين الأحزاب او في ولادتها ونشأتها يتوقف عند تأثير الكنائس والطوائف الدينية ، بالاضافة إلى نشاط النقابات العمالية والجمعيات الفلسفية او رابطـات المتقاعدين من الخدمة وغيرها من انواع الرابطات والجمعيات السرية التي تشكل النواة الخفية والكامنة للاحزاب . ويشير إلى الصلة الحميمة بين الأصول اللابرلمانية والمركزية السائدة في جهاز تلك الاحزاب وتنظيمها ، وبالتالي تمتع تلك الأحزاب بمقدار أوفر من الاستقلال والتفرد في الرأي بمعزل عن الجمهور ودون الالتفـات إلى أصول اللعبة البرلمانية والمعارك الانتخـابية وما إليها من المسائل المألوفة في الحياة السياسية البرلمانية .

لا بد من تمثل الكثير من هذه الملاحظات والاستنتاجات حين ننتقل إلى تتبع جذور الأحزاب الاسرائيلية والكشف عن الملابسات التي أحاطت بنشأتها وتكوينها . وقد نسارع الى القول بأن اعتبار الحزب بمثابة جماعة من الناس تعتنق مذهباً سياسياً واحداً ـ على حد قول بنجامين كونستان ـ يجعل من

اسرائيل حزباً واحداً تقريباً ، إذ الغالبية العظمى من الأحزاب الاسرائيلية تعتنق الصهيونية كمذهب سياسي وتشترك كلها في هذا الاعتقاد . وينتفي بذلك مفهوم الحزب السياسي كما هو متعارف عليه في العصر الحديث وتزول أسطورة تعددية الاحزاب في اسرائيل كواجهة للديمقراطية . لكننا لا نريد الاكتفـاء بذلك – على الرغم من أهمية هذه الظاهرة الكبرى – بل سوف نعمد ، ولو على صعيد النظر ، الى اعتبار هذه الأحزاب متعددة، وإن اجتمعت كلها على هدف صهيوني واستعماري واحـد . وسوف نراها كلهـا تتفق ضمنياً حول أهم المسائل المصيرية والقضايا التي تدعم المصالح الصهيونية ، وان تعددت في الظاهر واختلفت حول بعض الوسائل . ومما لا شك فيه ان الانسان العربي مدعو لوضع هذه الحقيقة أمام ناظريه وتمثلها مجردة من كل قناع قد يؤدي بنا الى الخديعة والضلال . فالديمقراطيـة المزعومة قد تغر المراقب أو الباحث في موضوع الاحزاب فيعمد الى تجاهل الحقيقة الاساسية الاولى أو إقصائها عن مجال النظر . ومما يؤيد ذلك ان الباحثين الذين انصرفوا الى دراسة الاحزاب الاسرائيلية من الوجهة العقائدية وعمدوا الى تصنيفها وترتيبها بين طرفي اليمين واليسار قد انتهوا الى اقصاء قضية الصهيونية أو اللاصهيونية عن لائحة مقولاتهم المنتقاة لتصنيف العقائد . لأنهم وجدوا ان الصهيونيـة هي القاسم المشترك لأكثرية هذه الاحزاب الساحقة وان اللاصهيونية ليس لها ذلك العدد من الأنصار الذي يستحق الذكر ؛ واللاصهيونيـون ، على قلة عددهم ، لا يتفقون

فيما بينهم حول مشاكل اسرائيل الاخرى [٢] .

على ان ذلك كله لا يمنعنا من تسجيل هذه الظاهرة الهامة التي سوف نعتبرها بمثابة الأساس في نظرتنا الى الأحزاب الاسرائيلية . فهي وان اختلفت فيما بينها حول بعض القضايا الثانوية أحياناً تلتقي كلها على صعيد الصهيونية وتكنّ العداء للعرب . والمسألة لها من الخطورة ما يحتم على الباحث أن يتوقف عندها فحسب . إذ أنه لا مانع من الالتفات الى المسائل الأخرى ووضعها في إطارها الصحيح . لأنها بالتالي تؤدي كلها إلى الغاية نفسها والهدف الصهيوني الواحد . فهي وان تعددت واختلفت يبقى هدفها واحداً لا يتغير ولا يتبدل. كيف تبدو لنا الاحزاب السياسية في إسرائيل ، إذاً ، من خلال هذا الإطار النظري العام ؟

الاحزاب الاسرائيلية : الخصائص المميّزة لها –

يُجمِع الذين درسوا الأحزاب في اسرائيل وتتبعوا نشأتها وتكوينها ومختلف نشاطاتها على الأمور التالية [٣] :

أ – ان هذه الاحزاب فريدة من نوعها ، إذ هي قد نشأت قبل قيام اسرائيل وفي ظل مجتمعات غريبة عن المجتمع العربي في فلسطين، في اوروبا الشرقية وبولونيا وروسيا القيصرية على وجه التحديد [٤] . ثم جرى

نقلها إلى البيئة الفلسطينية بعد أن سبقتها طلائـع الرواد في عملية استملاك الأرض واستعمار البلاد بحجة احياء الماضي .

ب – ان أغلبية هذه الأحزاب بدأت كأحزاب طائفيـة متعصبة وطبعت نفسهـا بطابع الطوباوية والمثاليـة من جهـة ، والتعصب العقائدي والاستثنائية من جهة ثانيـة .

ج – ان تأليف هذه الأحزاب وتشكيلها حصل بتشجيع حركة الصهيونية العالميـة ومنظمتها وتحت إشرافها بقصد حمل اليهود في اوروبا وباقي أنحاء العالم على تأييد الدعوة الصهيونية ووضع مخططاتها موضع التنفيذ . ومن الطريف انها كانت تتناسى علاقاتها داخـل الحركة أو تعمل منفردة وبوسائل مختلفة لتحقيق الهدف الواحد .

د – إن هذه الأحزاب قد تكونت على أمل أن تصبح نواة المجتمع الصهيوني في المستقبل وعلى أمل إقامة القواعد والمؤسسات والمستوطنات التي تغدو بمثابة المجتمـع الاسرائيلي المُصَغَّر .

هـ – إنها ليست أحزاباً على الطريقة الاوروبية أو بالمعنى

المألوف للحزب السياسي مع انها اوروبية النشأة في الغالب . فهي تقوم بنشاطات واسعـــة ومتعددة في حقول مختلفة من الاقتصاد إلى الخدمة الاجتماعية والضمان الصحي والثقافة والانباء والمصارف والمسارح والجرائد والنوادي الرياضية . وليس يستغرب ان تشكل « دولة ضمن الدولة » .

و – ان هذه الأحزاب على تعدديتها واختلافها وعلى الرغم من شدة « الصراع العقائدي » القائم فيما بينها وحدته، والتنافس والتناحر الذي يطبعها بطابع فريد ، تبدو على حقيقتها وبحكم نشأتها على انها مجرد صيغ خاصة للمطمع الصهيوني وبمثابة تنوعات مختلفة على الموضوع الأساسي الواحد : الصهيونية ومخططها العدواني في جمع شمل يهود العالم أجمع تحت ظل دولة اسرائيلية .

ز – ان هذه الاحزاب تعكس صورة الحركة الصهيونيـة العالمية منذ نشأتها . وإذا كانت الصهيونية قد جمعت شتـات المذاهب السائدة في القرن التاســع عشر – العلمانيـــة والاشتراكية والليبراليـة والقومية المتطرفة – على طريقتها الخاصة وفي سبيـــل تحقيق أهداف معينة ، فان هذه النزعات تنعكس بدورها على صورة الاحزاب السياسية القائمة وتطبعها بطابع

عقائدي مزيف .

ح – ان التنافس والتناحر بين الاحزاب الاسرائيلية ليس عقائدياً او ايديولوجياً بقدر ما هو من قبيل السعي وراء المصالح الخاصة والمنافع الاقتصادية أو للحصول على حصة أكبر من الميزانية (*) وجزء من نظام المغانم والأسلاب والمغريات والوظائف لاجل استبدال ذلك بأصوات الناخبين . حتى انه ليصدق عنها القول بأنها « دولة ضمن دولة » قد تحولت من حركات سياسية الى « تروستات اقتصادية » ضخمة تسيطر على حيـاة الافراد من المهد إلى اللحد . ويمتد نفوذها الى جميع مرافق الحياة العامة والخاصة .

ط – ان هذه الاحزاب تقوم في نظامهـا على مركزية في القيادة حيث تنحصر السلطـات الحزبية بايدي فئة قليلة من الزعماء . وان العضوية في الحزب أو ظاهرة الانتماء إلى الحزب هي من ابرز ظواهر الحياة السياسية في اسرائيل ، ولربما رجع ذلك إلى كون الحزب السياسي في اسرائيـل يخرج عن المفهوم التقليدي والمتعارف عليه للحزب ويقترب من عمل المؤسسة الخيرية حينـاً والتروست الاقتصادي الذي يقدم الخدمـات والتسهيلات ويؤمن الوظائف للزبائن

الاعضاء ويمارس هيمنة لا مثيل لها على سلوك الاعضاء وتصرفاتهم المعيشية .

ي — ان هذه الأحزاب، رغم ادّعائها العلمانيّة التي تصل إلى حد اللا تديّن في أقصى الحالات، لا يمكن فهم مواقفها وطبيعتها دون إدخـــال المسألة الدينية ودورها في الحياة السياسية والحزبية الاسرائيلية . وان الخلافات القائمة بين الاحزاب الدينية السلفية، في تمسكها الشديد بحرفية التوراة ونصوص التقليد الديني وفي دعوتهـــا لدولة ثيوقراطية دستورها التوراة ، وبين أحزاب اليسار العلمانية والتقدمية — هذه الخلافات ، يجري تجميدها وتناسيهـــا على عتبة تشكيل الحكومة الائتلافية . وإن الاحزاب الدينية متصالحة منذ زمن طويل مع فكرة الدولة الصهيونية ، على الرغم مـــا يشاع عن معارضتها الاولية لفكرة تلك الدولة . وإن سياسة الاحزاب العلمانية الحاكمة تقوم بصورة رئيسية على محاولة الابقاء على الوضع الراهن في المسائل الدينية ومسايرة الاتجاه الديني في مطالبه لدرجـــة تخلّيه عن مبدأ فصل الدين عن الدولة[٦] أو تصميمه على وضع دستور مكتوب لاسرائيل .

ك — ان هذه الاحزاب المتعددة والمتلونة بكل لون وعقيدة

ممكنة هي بمثابة مرآة تعكس المجتمـع الاسرائيلي القائم على التناقضات بتركيبه السكاني المتنـافر ، وثقافاته المـُلمـّة من أطراف الدنيا [٧] ؛ مما يجعل تلك الأحزاب تبدو مصطنعة في الكثير ممـا تدّعيه أو تنادي به ويكشف مسائـل على جانب كبير من الخطورة من حيث قوة الأحزاب الحقيقية ونفوذها الواسع في اوساط الحكم والتمييز القائم ضد اليهود الشرقيين الذين لا يحظون بنوع من التكافؤ بين قوتهم العددية المتزايدة ونفوذهم المحصور والمقيّد من قبل اليهود الاوروبيين الذين ينسبون لانفسهم الافضلية والاسبقية في معظم الامور ويتعالون على يهود المشرق – مما يولّد توتراً ونفوراً ويفضح نوعاً من أبشع انواع التفرقة العنصرية سوف تعمل حتماً على توسيع الشقة بين الفئتين وتؤذن بانفجار خطير من الداخل .

ل – ان معظم هذه الأحزاب قد لعب دوراً بارزاً ورئيسياً في قيام اسرائيل وحتى في الفترة التي سبقت ذلـك وتـُعرَف بـ « اليشوف » ، أي « المستوطن » . فالدور الذي لعبه حزب الماباي [٨] ، مثلاً ، ولا يزال يلعبه إلى الآن في الحياة السياسية لاسرائيل ، جعـل من ماضي الحزب يبدو وكأنه « الدولة في طريق التكوين » ، على حد تعبيرهم . وعلى الرغم من فشـل الماباي في

إحراز الأكثرية المطلقة وانشقاقه إلى جناحي اشكول وبن غوريون ، فانه يبقى حزب الحكومة والمنفـذ الأكبر لسياسة الصهيونية منذ تأسيسه الى الآن . فالأحزاب هي التي صمّمت دولة إسرائيل . وليس من قبيل المغالاة أن نعتبرها صاحبة اليد الطولى في إقامة الدولة المعتدية إلى حد بعيد . وسوف يتضح لنـا دورها الفعال من خلال البحث في تاريخها وتنظيماتها الخاصـة .

م — ان تعدّديّة هذه الأحزاب وانقسامها الظاهر في الرأي حول بعض المسائل الداخلية تعود بالدرجة الأولى إلى ما قبل قيام اسرائيل وإلى طبيعة أصلها ومنشأهـا الاوروبي ، وبالتالي الى الأفكار الصهيونية التي نادى بها تيودور هرتزل ودخلت في صلب منظمة الصهيونية العالمية لتصبح جزءاً من تاريخها الحافـل بالتعقيد والتآمر . هذه التعددية ، التي يشاء البعض اعتبارها من مظاهر الديمقراطية الصحيحـة ، تنبع بصورة رئيسية من تركيب اسرائيل العجيب وطبيعة القادمين اليها من المهاجرين اليهود . إنها نسخة طبق الأصـل عن وضع اسرائيل المجتمعي والتناقضات القائمة في وجودها . وليس تنافسها وتطاحنها سوى من قبيل التسابق على اقتسـام المغانم والأسلاب ، والمزايدة

السياسية في أسواق الصهيونية السياسية . فالتحزبات والتجمعات والتكتلات التي تتخـذ شكل الاحزاب السياسية وتطبـع نفسها بالطابـع العقائدي ليست في الواقع سوى تعددية في الوسائل لتحقيق أهـــداف الصهيونية والحفاظ على مصالحها .

من تاريخ الاحزاب الاسرائيلية

التحدث عن النشأة والاصول البرلمانية للأحزاب الاسرائيلية مسألة غير واردة ، ولا يمتّ ذلك بصلة مطلقاً إلى تاريخها وطبيعة منشأها . وهو بالتالي أبعد ما يكون عن طبيعة الفكرة الصهيونية بالذات . وليس من الصعب على الباحث في الجذور التاريخية لتلك الاحزاب من العثور دوماً وأبداً على ما يؤيد هذه الواقعة ويشير بلا تردد إلى النشأة المصطنعة والمتعمدة لكثير من التكتلات والجبهات والاحزاب والمنظمات ، وعلى الاخص خلال التاريخ الداخلي لمنظمة الصهيونية العالمية (١٨٩٧). إذ هو يحفل بالامثلة على ذلك . ويشهد في الوقت نفسه على ان معظم الخلافات الناشبة كانت من قبيل المزايدات الاستعمارية والتسابق على خدمة الاهداف البعيدة المدى للفكرة الصهيونية . فالذين تسلّموا مقادير الحركة الصهيونية ورسموا مخططاتها وعملوا على تغطية أهدافها الحقيقية لكسب ود الدول الكبرى والحصول على تأييدها ـ وذلك مثلاً عن طريق العمل الديبلوماسي الهادف الى نيل نوع من الاعتراف السياسي المسبّق بما أطلقوا عليه تسمية « القومية اليهودية » ـ

هؤلاء ، كان همّهم الاوحـد أن يحافظوا على وحدة العمـل ويجنّدوا أكبر قسم ممكن من يهود اوروبا ـ في اوروبا الشرقية على وجـه الخصوص ـ في سبيل تحقيق أهدافهم وتنفيذ مخططاتهم .

ولطالما أدى الخلاف والتنافس بـين مختلف الفئات إلى إحداث نوع من التفاهم الضمني على عدم الالتفات الى الفروقات والى الامتناع عن الخوض في النقاش والجدل . إذ كان دعـاة الصهيونية آنذاك يبذلون أقصى الجهد في إقناع الغالبية العظمى من اليهود الاوروبين ـ المتديّنين منهم والمتحررين والعلمانيـين والمندمجين في حياة مجتمعاتهم ـ بأنهم يشكّلون قضية قومية قائمة بذاتها وانهم بمثابة الجرثومة الغريبة في جسد مجتمعاتهم ، يعيشون على الهامش ولا خلاص لهم إلا عن طريق الصهيونية . وان التحرر والانعتاق الحقيقي لا يتأتى إلا عن طريق استعمار فلسطين تحت ستار « تعمير الارض الخراب » واحياء الموات ، واستيطانها كمقدمة لإقامة دولة يهودية على أرضها . ولم يتوقفوا عند هذا الحد ، بل ركزوا الثقل في دعوتهم الاستعمارية على ان الديانة اليهودية والصهيونية صنوان لا يفترقان ، وان الواحـدة منها متممة للأخرى وانه يستحيل على المرء أن يكون يهودياً ويبقى كذلك ، إلا إذا اعتنق الفكرة الصهيونية وأصبـح صهيونيـاً وساهم بالتالي في دفـع « الضريبة الصهيونية » المشهورة [٩] .

نستنتج مما تقدم أن البحث عن النشأة البرلمانيـة لاحزاب امرائيل ينطوي على تناقض عجيب وليس له ما يؤيده أو يشير اليه في ماضي هذه الاحزاب أو في تاريخ الحركة الصهيونية أو حتى في حياة دعاتها وأقوالهم وأفعالهم التي تحفـل بنوع خطير من الازدواجية والفصام الاخلاقي الذي يلجأ إلى ممارسة نوع من الكتمان ريثما يتم له ما يريد . ويكفي أن نسوق هنـا بعضاً مما كتبه تيودور هرتزل في « يومياته » كدليل قاطع على ذلك ـ مع العلم ان هذه المسألة حرية بالدرس وملأى بالخفـايا والمفاجآت ، والباحث فيهـا سوف يقـع على أعجب الامور وأغربهـا وتتكشف له الكثير من الجوانب الخفية للحركة الصهيونية التي تحفل بالمكائد والدسائس .

فقد كتب هرتزل ، مؤسس الحركة الصهيونية ، ما نصـه بالحرف الواحد ، يقول :

« منذ حوالي عامين أردت أن أجـد حلاً للمسألة اليهودية بمساعدة الكنيسة الكاثوليكية ، على الاقل في النمسا . أردت التوصل لمقابلة البابا ، بالطبع بعـد التأكد من تأييد رؤساء الكنيسة النمساويين ، ومخاطبته بما يلي : « ساعدونا ضد المعادين للسامية ، وأنا أقود حركـة كبيرة لدخول اليهود الحر والمستقيم في المسيحية » .

« الحر والمستقيم بمعنى ان قادة هــذه الحركة ـ وأنا على رأسهم ـ يظلون يهوداً وينشرون دعوتهم للدخول في ديانة الاكثرية على أساس بقائهم يهوداً . في رائعة النهار ، في الساعة الثانية عشر من ظهر الاحد ، وفي مواكب احتفالية خلال قرع الاجراس في الكنائس ، يجري الدخول في كنيسة القديس ستيفان . ليس بخجل ، كما كانت حال الافراد حتى الآن ، بل بكل مظاهر الاعتزاز والفخار والأبّهة . وذلك بأن يبقى القادة على يهوديّتهم ، ويوصلون جمهور الشعب الى عتبة الكنيسة على أن يظلون هم أنفسهم خارجها ـ هكذا ترتفع هذه البادرة بكلّيتها الى مستوى الصدق والاستقامة » (١٠)

والحق ان هذه المكيدة هي بمثابة القليــل من الكثير الذي يفضح أساليب الصهيونية ويبرزها على حقيقتها . إذ نجد الدعوة الصهيونية في وضع فريد يتكشف لنا من خلال بروزها على المسرح السياسي الاوروبي في أواخر النصف الثاني من القرن الماضي ، وكذلــك من النظر الى الحركات والمحاولات التي سبقتها ومهدت لها السبيل .

الصهيونية كفكرة ودعوة سياسية ظهرت في عصر القوميات الأوروبية لتنــادي بوجود مشكلة يهودية قائمة بذاتها وتنتظر الحل الجذري . هذه المشكلة التي تعزلهــا الصهيونية ليست في

اعتبارها مجرد مشكلة دينية او اقتصادية او اجتماعية ، بل هي مشكلة قومية وسياسية .(مع العلم بان هرتزل نفسه كان يؤمن في مطلع حياته بانها مشكلة اجتماعية وليست مشكلة قومية او طائفية ودينية !) ومع العلم ايضاً انه عبر عن اقتنـــاعه بان اليهود لن يتمكنوا من الخروج من مأزقهـــم إلا عن طريق الاشتراكية)[١١] . والمتتبـع لتاريخ الحركة الصهيونية يجدهـا تدخل في مأزق اعظم خطورة من المـأزق الذي تدعي الخروج منه ، إذ تبــــدو دون شك بمثابة من راح يبحث لنفسه عن مقومـات الوطن والأمة والقومية ــ وأبرزها آنذاك : الأرض واللغة والسيادة القومية ــ خـارج بيئته الثقافية المتنوعة بتنوع الدول والبلدان ، علّ هذه تفي بشروط القومية وتطبـع المسألة اليهودية بطابع عصري وتقدمي يساير ركب التاريخ ويخاطب المجتمعات الاوروبية بلغتها السياسية التي تفهمها . والصهيونية في ذلك كله تعلل النفس بانها قـــد انتهت إلى إيجاد حل عصري ومستقيم لمشاكل اليهود المقيمين في شتى المجتمعات الاوروبيـــة والمـؤولين عن جزء كبير من تلك المشاكل .

لكن الشروط المطلوبة لم تكن متوافرة ابداً ولا علاقة لها بطبيعة المشكلة . فعمدت إلى فرض نفسـها بشتى الوسائل : عن طريق عمل الخير والإحسان وإغاثة المنكوبين والدفاع عن الحقوق ورفع الحيف والحرمان والظلم ، إنما كستار لكسب ولاء اليهود وإيقاظ الشعور الذي ينسجم مع مخططها أو يلتقي وإياه في

منتصف الطريق أو نهايته. وكذلك عن طريق اللجوء إلى تاريخ الديانة اليهودية واستحضاره لتبرير دعوتهـا وجعلها في مستوى الحدث الديني المرتقب . ومضت في عملية استصلاح المـاضي وتطويعه وتشويهه حتى يتسنى لها ان تستمد من التقليد الديني ما يناسبها وتفسر التاريخ ومغزاه من وجهة نظر خصوصية ، ضيقة ومتعصبة وهي في كل ذلـك تتعمد التهرب من منطق الحلول التي فرضها وأقامها التطور الفكري والمجتمعي في اوروبا آنذاك . وتناصب العداء لكل المحاولات التي كانت جادة في العمل على إعادة الاعتبار للمواطنين اليهود في مجتمعاتهم المختلفة وفي حملهم على الإندماج الكلي في تيار حياة تلك المجتمعـات والإنصهار في بوتقتهـا . وحجتها في ذلك العداء ان اليهودي المندمج والمتثقف بثقافة مجتمعه لم يعد يهودياً على الإطلاق . مع العلم ان معظم اليهود الذين توجهت إليهم في دعوتها لم يخالجهم في الغالب اي شعور بانهم لا ينتمون إلى الثقافة الالمانية او الفرنسية او الروسية مثلاً . ولم ينظروا الى أنفسهم على الاطلاق كما شاءت لهم الصهيونية النظر وراحت تستميلهم اليه وتوحي لهم به دون انقطاع . ولطالما غررت بالكثيرين منهم لاصطناع الآلام والمعاناة أو الإحساس بشعور الدونيّـة والهامشيّة لكي تظهر بمظهر الضامن لخلاصهم والعامل على تحريرهم ووضع حـد لآلامهم « وشعورهم بالنقص » ! .

ولا بد لنا ، لكي نفهم الصهيونية على حقيقتها ، من الالتفات

الى التاريخ الاوروبي والرجوع قليلاً الى الوراء في سـير ذلك التاريخ لنتوقف عند حدث هام ما لبث أن أضفى طابعه على عصر بأكمله : عصر التنوير (Enlightenment) وبلوغـه ذروة التطور في الثورة الفرنسية عام ١٧٨٩ ـ أي قبل بروز الدعوة الصهيونية المنظمة بحوالي قرن من الزمن . وقد تميزت تلك الفترة، كما هو معروف ، بدعوة لاعتماد العقل والإدراك السليم في النظر الى مختلف شؤون الإنسان واهتماماته واعتبارها خاضعة لقوانين طبيعية ضمنية ، تسير قدماً نحو الأفضل والأرقى ويقدر العقل البشري على فهمها وإدراكها . فالعقل هو بمثابة « النور » الذي يضيء أمام الإنسان سبيله وينير له أرجاء عالمـه . والإنسان المستنير بضوء العقل لا بد له من بلوغ سعادتـه القصوى وتحقيق الخير الذي يرتجيه أو يرتأيه لنفسه . ولا بد له من استخـلاص مغزى الدين وتنقية مقوماته وأركانه الاساسية من كل ما شابها من الخرافات والأوهام والتقاليد التي يأباها كل عقـل مستنير بدوره . فالدين اليهودي ، كالمسيحية ، تسلطت عليـه انوار العقل أيضاً .

فالحركات الحديثة في الديانة اليهودية تعود في غالبيتها الى ذلك العصر وتنبع تعاليمها منه ، إما بصورة مباشرة أو غير مباشرة . وقد أدى انتشار أفكار التنوير بـين المثقفين الذين يعتنقون اليهودية الى بروز حركـة مماثلة تُعرف بالهـاسكالا (Haskala) وتدعو الى نبذ التصورات التقليدية حول طبيعـة

التاريخ اليهودي وهدفه والى الملاءمة للوضع الاجتماعي والسياسي الناتج عن ذلك المناخ الفكري العام . فالحقيقة الدينية اليهودية ، كما جردت من مختلف الاوهام والتصورات الخاطئة واللامعقولة في تفكير رجـــل ألماني مستنير يعتنق الديانة اليهودية ، موسى مندلسون Moses Mendelssohn ، (١٧٢٩ - ١٧٨٦) ، يقيمها نور العقل على الأركان أو المبادىء التاليـــة : ١) وجود الله ، ٢) العناية الإلهية ، ٣) خلود النفس .

وقد كان لتعاليم مندلسون [١٢] العقلانية أبعـــد الاثر في التفكير الإصلاحي الديني بين اليهود في غربي اوروبا على الأخص (سوف نتحدث عن شرقي اوروبا على حدة ، لما لليهود هناك من أهمية بالغة في قيام الحركات الصهيونية التي انبثقت عن الحركات والدعوات المناوئة للتنوير) . وانتشر تلامذته وأتباعـــه في أماكن كثيرة ومتعددة ؛ ومنهم دافيد فريدلندر (١٧٥٦ — ١٨٣٤) David Friedländer مؤسس الحركـــة الإصلاحية في المانيـــا ، (Reform Movement) . هذه الحركة انطلقت من المانيا وانتشرت منها الى انكلترا واميركا وكثر أنصارها ومؤيدوها . فقد دعت ، من جملة ما دعت ، الى اعتبار اليهودية عقيدة دينية في الصميم لا يشوبها أي عنصر قومي أو سياسي . وكانت تهدف ، من جهـــة ، الى التعلّق بالدين الخالص من الشوائب ، ومن جهة ثانية ، الى تشجيع عمليـــة الاندماج والانصهار في المجتمعات الاوروبية ، لان اليهود ينتمون الى

طائفة دينية وليسوا أمّة أو قومية . ولا يسع المتتبع لتاريخ هذه الحركة الا أن يكبر محاولتها في ابراز التصور العالمي الجامع لليهودية كدين واعتبارها التفسيرات القومية بمثابة التشويه المتعمد والخاطىء لغايات الله . ففي عام ١٨٥٤ ، مثلاً، عمد أحد دعاة الاصلاحية ابراهام جايزر Abraham Gelzer (١٨٣٠ - ١٨٧٤) الى استكمال عملية الألمنة أو التألمن التي دعت الى استعمال اللغة الالمانية في الصلوات والمواعظ والجوقة وإدخال الارغون والاستغناء عن العبرية أو التقليل منها بقدر الامكان . وبالاضافة الى محاولة استبدال السبت بالاحد كيوم للراحة ، مثلاً ، أقدم الإصلاحي المذكور على تشذيب كتب الصلوات . فاقتطع منها كل تلك الصلوات التي قد يُفهم منها الدعوة إلى اعادة بناء الدولة اليهودية وكل الاشارات الاخرى التي قد تسبب اساءة في الفهم ويمكن استغلالها للتلاعب بتفسير الامل المنتظر بجمع شمل اليهود المنتشرين في جميع أنحاء العالم . ومما لا شك فيه ان هذه الحركة كانت تعمل على تشجيع التحرر والانعتاق وتدعو للانصهار التام في الحياة الاوروبية . وليس بمستغرب ، إذاً ، أن يجد الباحث ميلاً متعمداً لدى الكثيرين من الذين كتبوا عن تاريخ الفكرة الصهيونية لتفشيل الدعوة الاصلاحية وإظهارها بمظهر من يعمل على تقويض دعائم الدين اليهودي ويثور على سلطة التوراة والتلمود . كل ذلك يحدث بالطبع لايجاد المبررات التي تمهد لبروز الصهيونية . المهم ، من الوجهة التاريخية على الاقل ، هو ان مركز الحركة

الاصلاحية انتقل ـ بعـد ثورات ١٨٤٨ والهجرات التي كانت تتزايد ـ الى الولايات المتحدة مع انتقال معظم القادة الاصلاحيين المتحمسين . والأهم هو ان هذه الحركة كانت خير دليل يدحض المزاعم الصهيونية ، إذ قد رفضت فكرة القوميـة اليهودية رفضاً باتاً من الاساس وقدمت الدليل الساطع على ان اليهود ، حـين ينظرون إلى أنفسهم مثل باقي البشر ويطردون أفكار الاستعـلاء من رؤوسهم ، يستطيعون العيش كمواطنـين في المجتمعات الاوروبية وليس هناك ما يحول دون اندماجهم في حياة تلك المجتمعات واعتبار أنفسهم جزءاً منها .

ونحن حين نبحث في الجذور التاريخية والاوروبية للحركة الصهيونية سوف نقع ولا بد على الكثير مما يلقي الضوء الصحيح على طبيعة الاتجاهات والحركات التي جاءت قبلها وانتشرت بين اليهود في غرب اوروبا وشرقهـا . وسوف تبدو لنا الصهيونية بمثابة تلـك المحاولة الدخيلة والمتعمدة لخنق جميع الحركات الأخرى فيما لو عجزت عن امتصاصهـا او تصفيتها أو تحريض الاوساط الدينية المتزمتة لتكفيرها وإعلانها خارجة على تعاليم الدين التقليدية . ولا ننـى ان هـذه الحركات التحررية قد اتسمت على الغـالب بطابع إصلاحي ديني وعقلانية منفتحة في النظر إلى المسائل الدينية ، اكثر مـا اتسمت بنزعتها السياسية ومطامعهـا التوسعيـة والاستعمارية . بـل يصـح الذهاب ابعد من ذلك واعتبـار الصهيونية وكأنها عملية قطع

الطريق على حل ما اصرّت على اعتباره «مشكلة يهودية قومية» ضمن إطـار التحرر المدني واكتساب حقوق المواطنية الكاملة داخل المجتمعات الاوروبية . وهو ما كانت افكار عصر التنوير تنادي به ، وجاءت الثورة الفرنسيـــة لتعلن حقوق الإنسان السياسية والمدنية وحق المواطن في اعتناق المذهب الديني الذي يشاء، شريطة الا يقف ذلك حجر عثرة في ولائه للدولة والمجتمع الذي يعيش فيه . وقـــد سرى مفعول تلك المبادىء التحررية ونطاقها الإنساني الشامـــل على اعضاء المجتمعات الاوروبية من معتنقي الديانـــة اليهودية ووضعهم على قدم المساواة مع غيرهم من المواطنين (١٣) . وكان الامبراطور جوزيف الثاني (١٧٤١– ١٧٩٠) قد أصدر مرسوم التسامح في الامبراطورية النمساوية ـ المجرية عام ١٧٨٢ . وفي بروسيا راح الامبراطور فردريك الاكبر (١٧١٢ ـ ١٧٨٦) ، في اعتنـــاقه لدعوة عصر التنوير ، يعلن بتساهله الشهير : « في مملكتي يجـــد كل إنسان خلاصه على طريقته الخاصة » . !

هكذا نجد اليهود في اوروبا خلال عصر التنوير ، وفي الفترة التي تلت الثورة الفرنسية واستمرت إلى القرن التاسع عشر ، ينعمون في مناخ الليبرالية ويشاركون في حيـــاة مجتمعاتهم . فالتحرر والانعتاق الذي بشّر به ذلك العصر كان يعتبر الإنسانية جمعاء بمثابة مداه الأرحب والمستنير . وحركة الانعتـــاق (Emancipation) اتاحت لليهود فرصة التصالح مع العالم والمضي

في ممارسة الحقوق والواجبات المدنية التي لا تتعارض مع التراث الديني الذي شذّبه ! العقـــل واعتبره مذهباً اخلاقياً سامياً في تعاليمه الجوهرية ـ على غرار ما فعلت الحركة الاصلاحية في القرن الماضي . ومع قبـــول اليهود بالمساواة الانسانية الشاملة وتخليهم عن اسطورة «الاختيار الالهي» والشعور الاستعلائي الضيق بانهم يختلفون عن سائر البشر وانهم يقفون وحدهم في واد وباقي الانسانية في واد[١٤] ويحتكرون الآلام والمعاناة والتشرد لأنفسهم، مع ذلك القبول، اخذت حركة الانصهار والذوبان (Assimilation) تقوى وتنتشر وتفعل فعلها حتى انحسر سلطان التقليد الديني ونبذت معظم التصورات التقليدية حول طبيعة التاريخ اليهودي وهدفه ومغزاه. ولم يعد هناك ما يميز اليهودي المتحرر والمستنير عن غيره في اوروبا الغربية سوى ذلك الاشتراك في التعاليم الروحية الدينية وتراثها الاخلاقي الصحيح. ولا بد لنا من تذكر الشكوك التي كانت تساور نفوس الكثيرين[١٥] في اوروبا حول جدوى التحرر والانعتاق فيما لو بقي اليهود على ادعائهم بالتفرد والانغلاق ولم ترسخ في نفوسهم استحالة الجمع بـــين الولاء المزدوج والتمتع بكافة حقوق المواطنية . فالتحرر والانعتاق كان يشترط الفصل بين الايمان الديني والولاء للدولة التي تمثل المجتمع باكمله وتشكل مظهره السياسي الصحيح .

يتضح لنا مـما تقدم ان تحرر اليهود وانعتاقهم وبالتـــالي اندماجهم في حياة المجتمع الاوروبي الغربي قد بدأ يؤتي ثماره

في أواخر القرن الثـامن عشر كجزء من المشروع الاكبر لإعتاق الانسانية وتنويرها . وفي منتصف القرن التاسع عشر ، مثلاً ، اصبح من الامور البديهية التي وجدت تعبيرها السليم في الحركة الاصلاحية وأتاحت امام اليهودي الألماني أو الفرنسي ان يساهم في تراث الحضارة الاوروبية ويعتبر نفسه جزءاً من ذلـك التراث دون التخلي عن التراث الاخلاقي للدين اليهودي كما يمحصه نور العقل ويؤهله للانسجام والتطور .

ومما لا شك فيه ان بقاء الازدواجية الكامنة في بعض النفوس والميل الرومنطيقي للحد من سلطان العقل وإفساح المجال أمام ما يسميه باسكال بـ « منطق القلب » قد ساعد لدى الكثيرين على تقوية حدة التوتر وأبعدهم عن الطريق التحرري والانعتاقي – حتى جاءت صهيونيتهم تقطع خط ذلك التطور السليم وتعلن عداءَها للاصلاح والاندماج والذوبان . وأفضل مثال على المفكر اليهودي الذي سقط ضحية هذا التوتر بين العقل والقلب – على حد قوله – وارتد إلى السلفية التي مزجها باشتراكية رومنطيقية تتبنى فكرة القومية اليهودية وتعمل على الجمع بين طرفي نقيض: المبادىء الحديثة والتقليد اليهودي التاريخي : موسى هسّ (Moses Hess) ١٨١٢ – ١٨٧٥ .

بينما نجد مفكّراً ألمانيـاً آخراً كان يعرف هسّ عن كثب ويشترك وإياه في الرأي ، إنما لا يوافقه على نظرته المستحدثة التي

تخلط اليهودية والقومية والرومنطيقية والهيغلية هـذا الخلط العجيب الغريب . ولا يعمد إلى نقل الفلسفة الهيغلية من تصورها الأوسع إلى نطاق سياسي يحصرها في نطاق الفكرة الصهيونية الضيق . ولا غرو فإن كارل ماركس كان يهزأ من هس ومن بواعثه في التكفير الشخصي ورومنطيقيته التي أودت بـه إلى مجاهل الدعوة الصهيونية ، وجعلته ينظر إلى ماضيه الفكري التقدمي بمثابة رحلة إغتراب عن ديانة اليهود ومصيرهم . وما أن تحركت الازدواجية الكامنة في نفسه حتى عصف به الحنين إلى العودة ونشر كتابه « روما والقدس » Rome and Jerusalem عام ١٨٦٢ . ولا يفوتنا ان نشير هنا إلى موقف ماركس المنسجم والمتماسك ممـا دُعي آنذاك بـِ « المسألة اليهودية »[١٦] : فهو لا ينظر اليها على حدة بل ضمن إطار علاقتها بالمجتمع ككل ولا يحصرها في العلاقة بين الألمان واليهود، بل يراها من خلال منظور التحرر والانعتاق الأوسع والاشمل الذي سيتناول المجتمـع الاوروبي بأجمعه . ولا يعتبر اليهود بمثابة وحـدة دينية أو عنصرية ، بل مجرد قضية اقتصادية بحت لا يتم حلهـا إلا عن طريق تحرير المجتمع بأكمله ، وحـين يقلع اليهود أنفسهم عن عبادة المال والانانية التي تُحيل كل شيء في عالم الانسـان الى سلعة وتختزل قيمـة الاشياء الى المال . من هنـا ينشأ اغتراب الانسـان عن ذاته ومجتمعه ووجوده الطبيعي . وليس اليهودي سوى المظهر البارز للعثرات التي تقف في سبيـل التحرر . فليتحرر ذلك اليهودي من يهوديته (= عبادة المال) ، لكن

ليس على الطريقة اليهودية في التحرر (= الاعتماد على قوة المال الذي يجمعه ويسيطر على مرافقه) ، بـل بالتغلب على ذاته والتصالح مع العالم والارتفـاع بالانسان إلى مستوى لا يساويه بالسلعة وقوة المال الشرائية .

وحين يعمد المؤرخون الى اعتبار الصهيونية بمثابة « ظاهرة لاحقة» لعصر الانعتاق والتحرر يجب علينا ان نفهم من ذلك ان الصهيونية تمثل العدو اللدود للحركات الاصلاحية والمحـاولات الاندماجية التي كانت ستؤتي ثماراً أوفر لو أتيح لها الاستمرار والفعل في حياة المجتمعات الاوروبية آنذاك . هذا ما يتضح لنا حـين ننتقل الى تتبّع الأثر الذي احدثته عقائد عصر التنوير وافكاره بين اليهود المقيمين في اوروبا الشرقية ، وفي روسيـا القيصرية وبولونيـا بالضبط . إذ ان الصهيونية تبلورت هناك واتخذت لنفسها طـابعاً عقائدياً متطرفاً حمل دعاتها على رفض التحرر والانعتاق كحل لمشاكلهم واعتبـارها البديل الأوحد لكل ما عداها من المحاولات والحلول. وفي دراستنا لمصير الافكار التحررية بين اليهود في شرقي اوروبا سوف نلتقي كذلك بالجذور التاريخية التي تفسر طبيعة الكثير من الأحزاب والجماعـات الصهيونية التي نشأت هناك وانتشرت إلى سائر الانحاء.

على الرغم من انتشار الافكار التي اطلقها عصر التنوير في غربي اوروبا بين المثقفين اليهود في روسيا القيصرية وقيام الدعوات

الاصلاحية والاندماجية بينهم[١٧]، فاننا نجد الكثير من العلاقات التقليدية والشعائر الدينية والتفسيرات الأخروية للتاريخ والديانة اليهوديين قد بقيت بعيدة عن كل ذلك . فالاختمار الفكري الذي احدثته الأفكار التحررية آنذاك تحول في العقود الأخيرة للقرن الماضي إلى ردة فعل عنيفة احدثت انقساماً بين اليهود الشرقيين وحملت قسماً من الكتّاب الروس بالعبرانية على مهاجمة نمـط الحياة في ظل التحرر والانعتاق لدى يهود اوروبا الغربية . وقد ساعدت موجة الفتن والمذابح التي عاناها اليهود الروس في الثمانينات على تقوية الموقف المعادي للتحرر والانعتاق وتخييب آمـال الداعين له . فقام من يدعو إلى استبدال تلك الافكار ورفضها بصراحـة ، على غرار ما فعل « ليو بنسـكر Leo Pinsker » (١٨٢١ – ١٨٩١) في كرّاسه عن التحرر الذاتي ، ١٨٨٢ (Auto Emancipation) ، إذ نجده يعتبر الصهيونيـة بمثابة البديل والحل . فهي تأخذ مكان التحرّر وتشكل الحل الوحيد ! وإلى هذه الفترة تعود جذور الحركة التي دعت نفسها بـ « محبي صهيون[١٨] » (Hovevei-Zion) ، واتسمت بطـابع سياسي واستعماري يدعو إلى تشجيع الاستيطان في فلسطين عن طريق مساهمة المحسنين اليهود ! وبالطبع حـاول دعاة هذه الحركة ، التي انتشرت بين اليهود داخل روسيا وخارجها ، ربـط مخططاتهم السياسية بتفسيرات ملائمة للتقليد الأخروي اليهودي كوعد بالعودة إلى صهيون. ومما لا شك فيه ان الافكار العلمانيّة لم تفعل فعلها بين اليهود هناك على غرار ما فعلته في الغرب ، إذ

كان عليها ان تقاوم تزمتاً دينياً شديداً ، من جهة ، والتفـافاً موحداً حول التقليد الديني بإطاراته وشعائره وطقوسه المنظمة والمنطوية على نفسها ، من جهة ثانية .

ومما يسترعي انتباهنا ان معظم العقـائد التي برزت بين اليهود في اوروبا الشرقية (١٩) كانت صهيونيـة الطابع اولاً ثم عمدت إلى تبنّي بعض التعاليم الاشتراكيـة وإدماجها في صلب الدعوة الصهيونية . ففي العام نفسه الذي انعقد فيـه المؤتمر الصهيوني الأول بدعوة تيودور هرتزل وإشرافه نجد العمال اليهود في روسيـا يؤسّسون اتحـاد النقابات الاشتراكيـة لعمال روسيا وبولونيـا الذي عُرف باسم « Der Algemeyner Idisher Arbeter Bund in Rusland un Poiln » وحـين بدا على هـذا الاتحاد انه قـد ينافس الصهيونية من الوجهـة العقائدية ، راح الصهيونيون يزايدون عليه في الاشتراكية لكي يتم لهم القضاء على الاتجـاه اللاصهيوني الذي سار عليه . وبرز ذلك الطراز العجيب الغريب من الأحزاب والتكتلات الصهيونية ـ الاشتراكية داخل المنظمة التي انبثقت عن المؤتمر الصهيوني ، حتى ان بعض هذه الفئـات تطرّف في تفسيره للصراع الطبقي لدرجة حملته على رفض التحالف مع البورجوازيين اليهود داخل المنظمة باعتبار كل تعـاون من هذا القبيل مشاركة طبقية يأباها الصراع الصحيح.

٤

ولم تلبث الخلافات والفروقات بين المتدينين والعلمانيـــين داخل منظمة الصهيونية العالمية [٢٠] حتى حملت جماعة السلفيـّة الدينية المتطرفة التي أصرّت على اعتبار فلسطين بمثابة مركز روحي لليهود إلى الخروج من المنظمة وتشكيل اتحاد لليهود المتدينين ُعرِفَ منذ ذلك الحـــين (١٩١٢) بـِ « اغودات إسرائيل » (Agudat Israel) . وجمع حوله الكثير من اليهود في العالم ، بينما كان مركزه الاقوى في اوروبا الشرقية . وجدير بالذكر ان الجماعات التي انضمت إلى اتحاد المتدينين هـــذا كانت تعارض الصهيونية باعتبارهـــا تشكل خطراً علمانياً على الدين اليهودي . لكن الحركـة المغالية في السلفيّة والتديّن أيدت الاستعمار الديني في فلسطين وحصرت نشاطها في بناء المدارس الدينية ونشر التعليم الديني . وفي عام ١٩٢٢ انبثقت عنها حركة عمالية في بولونيا تهدف الى الحـد من تغلغل النشاط العلمـــاني والاشتراكي بين العمال اليهود وعُرِفت منذ ذلك الحين بـِ « عمال اغودات إسرائيل» ، .Poalei Agudat Israel وهي بمثابة الجناح العمالي للحركة الاولى .

هذه الحركة وجناحها العمالي كانت تؤيد قيام اسرائيل ولا تزال [٢١] . فعلى الرغم من انها تعارض ما تسميه بـِ « النواحي اللادينية » في الصهيونية وتتصف بشدة التعصب في نشاطهـــا الديني ، فقد برزت كحزب سياسي صهيوني كبقية الأحزاب . واتخذت النشاط السياسي سبيلاً لوصولها الى الناخبين والى مقاعد

الحكم . فكأن اعتقادها « السالف » بأن التعاون مع العناصر المناوئة للدين يستنزل غضب الله على اسرائيل ويحول دون مجيء المسيح المنتظر هو مجرد مسألة داخلية ضمن الإطار الصهيوني الأوسع ولا يمنعها من القيام بنشاط سياسي واسع والاشتراك في الحكومة الحالية وتأييد الهجرة الجماعية والأعمال العدوانية ضد الدول العربية . إنها صهيونية على الطريقة السلفية التي تعارض تبنّي دستور مكتوب وتهدف الى تحويل اسرائيل نحو الثيوقراطية ، لكنها لا تمانع من الاشتراك في حكومة ائتلافية يتزعمها الماباي المعروف بميوله العلمانية ، مثلا .

ما قيل عن حركة « اغودات اسرائيل » وجناحها العمالي يصدق الى حد بعيد على الحركة التي تقف إلى يساره وتدعو نفسها بـ « حزب مزراحي » . هذا الحزب تعود أصوله الى اوروبا الشرقية (المجر) إذ قد تأسس عام ١٩٠٢ وما لبث ان أنشأ فرعاً له في فلسطين عام ١٩١٨ . والمزراحي في العبرية لفظة تعني « المركز الروحي » . لكنه يعتنق أيضاً عقيدة صهيونية دينية [٢٢] ، وهو بمثابة فرع بين فروع كثيرة منتشرة بين اليهود في سائر أنحاء العالم . قد لا يكون حزب مزراحي مغالياً في التعصب الديني إلى الدرجة نفسها التي يمثلها اغودات إسرائيل ، لكنه مثله في اعتماد الصهيونية الدينية ويضم في عضويته الكثيرين من المنتمين الى الطبقات الوسطى في المدن . وليست الليبرالية الدينية التي تُنسَب الى المزراحي إلا من قبيل

التكتيك الذي لجأ اليه قادة الحزب بالامتناع عن المناداة بالدولة الثيوقراطيــة تحت شعار « عش ودع غـيرك يعيش » . أي ان المزراحي كوفىء على « اعتداله » و « تحرره » بإشراكه في معظم الحكومات الائتلافية منذ قيام اسرائيل . ومن المعروف عن المزراحي أنه يؤيد الماباي في المسائل الحساسة وإن عارضه في كثير من سياساته العمالية والاقتصادية التي يمثلها الهستدروت . وحين يعمد الى الانسحاب من الوزارات خلال مناقشة المسائل الدينية ، فهو يلجأ لذلك لكي يعود من النافذة بعد الحصول على المكاسب والمغانم التي يتنازل عنها الماباي .

انشـــأ المزراحي جناحـــاً عمالياً دينياً ـ أي « حزب العامل المزراحي » Hapoel Ha-Mizrahi في القدس عام ١٩٢١ لكي يأخذ زمام المبادرة من الحركات الصهيونية العمالية ويزايد عليها في اشتراكية على طريقته الخاصة . فهو يشارك في جميع النواحي الاستعمارية للصهيونية تحت ستار « المركز الروحي » ويتخذ لنفسه شعار « التوراة والعمل » ، لكي لا تسبقه أو تبزه في صهيونيتها وأعمالها النقابية وفي انشاء المستوطنات والتعاونيات والمستعمرات الزراعية وغيرها . ولا يخفى أن الحزب ينتمي إلى منظمة الصهيونية العالمية منذ قيامـــه إلى يسار المزراحي وله فروع بـــين مختلف تجمعات اليهود في العالم . وكل من الحزب وجناحه العمالي يهدفان بالدرجة الاولى إلى تحقيق مطامـــع الاستعمار الصهيوني ومزاعمه وبذل مختلف الوسائل للعمل على

جمع شمل يهود العالم أجمع في اسرائيل . فالمناداة باعتماد التشريع الديني كمصدر للقوانين وإعطاء القادة الدينيين مركزاً لائقاً ومرموقاً ضمن جهاز الدولة والتشدد في تعطيل يوم السبت . هذه كلها لا تجعل من حركة مزراحي إلا ممثلة للصهيونية تحت ستار الحفاظ على الدين وشعائره، ولا تمنعها بالتالي من الدعوة للتحالف مع الغرب وتشجيع الجهد الفردي في الاقتصاد وإتاحة المجال أمام التنافس الرأسمالي لكي يدعم الاستعمار الصهيوني عن طريق توظيف أمواله في اسرائيل . والمعروف ان هذا الحزب قد كسب الكثير من الأنصار بين اليهود الشرقيين الذين لمتهم اسرائيل من شمالي افريقيا وبعض البلدان الآسيوية .

على ان ما يسترعي انتباهنا في هذه الحركات والاحزاب التي تحولت اليها هو العداء المستحكم الذي تكنه لليهودية الاصلاحية وتبنيها للمزاعم الصهيونية بصدد اعتبار الاصلاح والاندماج والتحرر تشكل خطراً على يهود اوروبا في الشرق والغرب . ومما لا شك فيه أن جذورها تعود الى الذين حاولوا الوقوف في وجه أفكار التحرر والتنوير القادمة من الغرب . ففي روسيا ، مثلاً ، لجأ المثقفون اليهود المتدينون الى عقد حلقات للدراسات الدينية تضم مختلف فئات اليهود. واختاروا لها الوقت المناسب ، إذ كانت الاجتماعات تحصل كل يوم « عند الشفق ، حين يتسنى لذلك الجو السويدائي الهابط مع الظلمة

ان يثير عواطفهم » . وقـد تأثر الكثيرون من الحاخامات في روسيا وبولونيا بأفكار موسى هس الذي ـ كما مرّ معنـا ـ وجد الخلاص الوحيد في مزيج من القومية اليهودية والاشتراكية الرومنطيقية التي طعّمها بالهيغلية في نظريته التي أطلق عليها وصف « السبت التاريخي للانسانية » (على غرار ما تحدث عنه هيغـل أيام صباه : « الجمعـة الحزينة التأمليّـة » (Spekulativer Karfreitag

ومن الطريف أن نتدارك تلـك التفسيرات التي نسبها المتديّنون اليهود في روسيا القيصرية ، مثلاً ، إلى الانجازات التي أوجدها عصر التنوير وأفكاره في بلدان اوروبا الغربية. ففي منتصف القرن التاسع عشر نجد اليهود يتمتعون بكافة الحقوق ويصلون الى أعلى المراكز في مجالس الدول وفي عالم التجارة والمال . وهنا لجـأ المتدينون والمتزمتون في اوروبا الشرقية إلى فهم ذلك كله بمثابة الإيذان بالخـلاص الموعود ونتيجة لتدخّل الله العجائبي لصالحهم . فقام أمثال الحـاخام زفي هيرش كاليشر Zvi Hirsch Kalisher (١٧٨٥ — ١٨٧٧) يـدعون الى ضرورة استعمار فلسطين عن طريق تشجيع المستوطنات والمستعمرات الصهيونية وبمساعدة أغنياء اليهود. وقد وضع كاليشر المذكور مخططاً لاستعمار فلسطين وحصل على تأييد واهتمام من جانب بعض كبار المتمولين اليهود في بريطانيا ، ممـا مكّن أنصاره من اقامة بعض المستعمرات

الصهيونية التي يعود تاريخ أولاها ـ « بطـــاح تكفا » الى عام ١٨٧٨ !

هكذا تتضح لنــا طبيعة الجذور الدينية اليهودية ، التي كانت منغرسة في التربة الاوروبية ، لبعض الحركات الدينية الصهيونية التي تظهر اليوم بمظهر الأحزاب السياسية داخـل إسرائيل . ويجدر بنا ان نتعرف على تبريرها للاستعمار وقبولها بالمخططات الصهيونية التي لجـأت الى اعتبارها تحقيقاً لوعد الله بتخليص « شعبه المختار » . وبذلك تـتـنّى لها ان تجد ما يبرر نواياها وأعمالها الاستعمارية تحت ستـــار « الخلاص الموعود » وإقامة «المركز الروحي »الذي قام على الاستيطان والاستعمار !

المفارقة الكبرى

اشتراكية الاحزاب الصهيونية

تحدثنا في الفصل السابق عن استغلال الصهيونية للحركات الدينية وحملها على القبول الضمني والعلني بفكرة الدولة القومية المُستَعمِرة ؛ وقد اتضح لنا كيف كانت هذه الحركات تستعد لتحقيق الغايات الصهيونية وكيف عمد بعض دعاتها الى استنباط التبريرات والتفسيرات التي تصب في نهاية المطاف عند الهدف الصهيوني الأوحد: استعمار فلسطين وإنشاء فروع لتلك الحركات تحت ستار خلاص الروح ؛ وما لبثت هذه الدعوات والحركات ان دعت نفسها احزاباً سياسية داخل إسرائيل !

وقد وردت بعض الاشارات إلى اعتناق الحركات الصهيونية للمبادىء الاشتراكية والماركسية بقصد طبع صهيونيتها بطابع التقدمية والتحرر والانسانية . لكنه يجدر بنا الآن ان نبحث في موضوع تلك العلاقة ، العجيبة والغريبة في آن واحد ، بين

الصهيونية والمزاعم الاشتراكية التي تدّعي اعتناقهـا . وبذلك يتسنى لنـا التعرف على جذور بعض الأحزاب الصهيونية التي تنادي بالتقدمية والعلمانية والديمقراطية وتعتبر نفسهـــا من الأحزاب اليسارية والاشتراكية .

عمد الذين صنّفوا الأحزاب الاسرائيلية(٢٣) الى عماليّة ومحافظة ودينية وأحزاب تقوم بذاتهـــا ولا تقع ضمن نطاق التصنيف (الحزب الشيوعي والآحزاب العربية) ، أو حاولوا ترتيبهـا انطلاقاً من الوسط في اتجاهي اليمين واليسار (٢٤) ، إلى اعتبـار الاتجـــاه الصهيوني الاشتراكي ممثلاً في الأحزاب التـــالية :
١) الماباي (حزب عمال إسرائيل) . ٢) احدوث هاعفودا = (Achdut Ha'avoda - Poalei Zion) أو حـــزب العمـــال المتحدّين (تأسس عـــام ١٩١٩) Hapoalim Hameuchedet و ٣) المـابام Mifleget فالماباي ظهر كحزب عـام ١٩٣٠ من جرّاء دمج جماعات صهيونيـــة تعود بجذورها إلى اوروبا الشرقية وقد انشأت لها فروعاً في فلسطين وكانت لها مستعمراتها ومنظماتها العسكرية والكثير من المؤسسات التي أُريد لها ان تكون نواة المؤسسات الحالية في إسرائيل ، وأشهرهـــا ، كما هو معروف ، الهستدروت (١٩٢٠) (الاتحاد العمالي العام) الذي يعتبر المصدر الرئيسي لقوة الماباي ويضم حوالي ثلاثة ارباع العمال في اسرائيل (٢٥) .

هذه الجماعات هي احدوث هاعفودا(حزب وحدة العمل) التي كانت تنتمي إلى حركة عمال صهيون في السابق، وهابوعيل هتزائير Hapoel Hatzair (او العامـل الفتى) . وحـين نتتبـع جذور هذه المنظمات والحركات نجدها ترجع إلى روسيا القيصرية وبولونيا . فقد تحدثنا فيا سبق عن لاصهيونية الاتحاد العام للعمال اليهود في روسيا وبولونيا . ويجدر بنا ان نضيف هنا بأن الصهيونية كانت تحـارب المثقفين الراديكاليين من اليهود لاشتراك بعضهم في الحركات الثورية خلال السبعينات وتعاونهم مع سائر فئات الشعب للقضاء على الحكم القيصري ، لأنها كانت تعتبر كل اهتمام من هـذا النوع بمثابة تجاهل للمصير اليهودي واعتبـار « المسألة اليودية » بمثابة « مرض ثانوي من امراض المجتمع الأخرى »[٢٦]. لذلك اتجه اهتمام الصهيونيين إلى كسب الحركة البروليتارية اليهودية التي كانت تنافسهم على الصعيد الايديولوجي في اوروبا الشرقيـة . فراح بعض المفكرين منهم يحاولون الربط بين الصهيونية من جهة والتعاليم الاشتراكية من جهة ثانية . فالاشتراكيون واللاصهيونيون وجدوا الصهيونية، في دعوتها القومية وبحثها عن السيادة القومية، تتعارض مع فكرتي الاممية والصراع الطبقي . وانكروا بالتالي وجود ما دعتـه الصهيونية بالقومية اليهودية . كذلك اعتبروا العداء للسامية نابعاً من الصراع الطبقي . وهنا ظهر أمثـال بير بوروشوف Ber Borochov (١٨٨١ - ١٩١٧) الذي حـاول العثور على أساس ماركسي للصهيونية ، بأن راح يبحث في كتابات

ماركس وانجاز عن التلميحات والاشارات المتفرقة التي تؤيـد وجهة نظره . وخرج بما يشبه النظرية الصهيونية التي تقوم على أساس من المادية الديالكتيكية ، عبّر عنها في كتابه : « المسألة القومية والصراع الطبقي » ، ١٩٠٥ . وما لبث أن أعدّ برنامجاً مفصلاً للاستعمار الصهيوني على أسس ماركسية ، وذلك بالاشتراك مع اسحق بن زفي . وأطلقـا عليه تسمية « برنامجنا » ١٩٠٦ Our Platform . ولا غرو فقد قامت جماعة عمـال صهيون الروسية على أساس هذا البرنامج (Poalei Zion) وأرسلت ممثلين [٢٧] عن الحركة إلى المؤتمر الصهيوني ، راحوا يزعمون ان الاشتراكية الحقة هي تلك التي تتضمن الحل الصهيوني للمشكلة اليهودية . ففي برنامج الحركة المذكور نجد بوروشوف يدعو لتشكيـل « صهيونيـة بروليتارية » تشكّل النواة والأداة التنفيذية لمطامع الصهيونية المعروفة . فالحيـاة اليهودية ، في نظره يجب أن تسير وفقاً للتخطيط التالي [٢٨] :

١ ـ هجرة البورجوازية الصغـيرة التي تتحول الى بروليتاريا .

٢ ـ تركيز الهجرة اليهودية .

و ٣ ـ الضبط المُنَظّم لهذه الهجرة .

العاملان الأوّلان نتيجة تلقائية للعملية التي تحصل داخل

الحياة اليهودية . أما العامل الثالث فلا بد من ادخاله بواسطـة البروليتاريا اليهودية المنظمة .

تتضح لنا أهمية برنامج بوروشوف هذا (بالاضافة إلى اشتراك إسحق بن زفي ، الذي ترأس دولة اسرائيــل فيما بعد !) حين نعلم ان الماباي والمابام وبقية الأحزاب الصهيونيـــة التي تتبنى هذه الاشتراكية تستمد الكثير من افكاره وتعمل على وضعها موضع التنفيذ منذ ذلك الحين [٢٩] . ومـا ان دخلت الأفكار الصهيونية إلى التعـاليم الاشتراكية وراحت تؤولها حسبما تشاء نواياها ومزاعمها حتى احدثت انقساماً في صفوف الاشتراكيين وأدّت إلى قيـام حركات ومنظمات جديدة . ومن الطريف ان نسجل تجاهل الصهيونيين الاشتراكيين المتعمد لمقالة ماركس عن المسألة اليهودية (مرّ ذكرها معنا) وعدم تساهلهم مع تلـك الآراء التي يعتبرونها تتجـاهل الوضع اليهودي ، كما يريدون هم النظر إليه . فقـد برزت هذه الاختلافات في وجهات النظر داخل منظمة الصهيونية العالمية وكانت تنتهي بقيام جناح يتجه نحو اليمين وآخر نحو اليسار. ولا ننسى ان معظم هذه الفروقات والخلافات كانت تدور حول الوسائل الكفيلة بتحقيق الاهداف الصهيونية ، إذ كانت المنظمة تسعى دوماً وابداً لإيجاد نوع من وحدة الهدف ، ما دامت الوسائل ستؤدي في النهاية إلى تحقيق ذلك . وما التنافس والتنـاحر والتعددية التي تطالع المراقب من قبيـل التسابق على تأمين المصالح وتقوية المركز الاقتصادي

والحصول على المغانم السياسية الداخلية والمحلية .

وحين قـــام الماباي نتيجة دمج الفئتين المذكورتين أعلاه ، كانت احدى المنظمات التي ترجع جذورهـــا إلى بولونيا قبـــل وبعد الحرب العـــالمية الأولى (Hashomer Hatzair اي الحارس الشاب) [٣٠] ترفض فكرة ذلـــك الدمج في حزب يجمع مختلف نواحي العقـائد الصهيونية والاشتراكية. وفضّلت البقاء بمفردها لتشكل حزباً ثورياً صهيونياً وماركسيـــاً في آن واحد . قد بقيت على استقلالها كمنظمة تشبه الحزب وتعتمـد على المزارع التعاونية في عضويتها وتدعو لدولة مزدوجة القومية بين العرب واليهود حتى عام ١٩٤٨ . فقد تألف حزب المابام (MAPAM) بعد دمج الجماعات الصهيونية والاشتراكية اليسارية التالية : هاشومر هاتزائير وأحدوث هاعفودا والجناح اليساري لحركة عمال صهيون (انشق هذا الجناح عن الحركة الاصلية لأن أكثريتها رفضت طلبه بتوثيق العلاقات مع الاتحـاد السوفياتي بعد ثورة اكتوبر ، ١٩١٧) . وكان انفصال احدوث هاعفودا عن الماباي بسبب شعورهـا بأن الماباي يغالي في الاعتـــدال الاشتراكي ولا يحجم عن مساومة الرأسمالية ومهادنتها . وقـد اختلفت احدوث هاعفودا مع الماباي عندما أقرّت منظمـــة الصهيونية العالمية عام ١٩٤٢ ، بتأثير الماباي ، ذلك التصريح الذي يؤيد قيام دولة يهودية صهيونية في فلسطين . وبقيت ولا تزال عضواً في المنظمة العالمية لعمال صهيون . وممـــا يسترعي

الانتباه تلك السرعة التي يأتلف فيها هـذا الحزب ثم يعود ويختلف . فقد انفصل عن المابام أيضاً عام ١٩٥٤ ليصبح حزباً جديداً ينادي بالحياد الفعلي بين الشرق والغرب ويخالف بذلك كلاً من الماباي والمابام . لكنه لم يدم على هذه الحال طويلاً ، بل انحاز الى اشتراكية يمينية (على ما يبدو !) إذ تحالف مع الجناح الاشكولي للماباي لخوض الانتخابات ضد قائمة بن غوريون وحزبه وهو مشترك في حكومة اشكول الإئتلافية الحالية (٣١) . ولو عرفنا ان السبب يعود الى قوة احدوث هاعفودا داخل الهستدروت لزال العَجَب !

ومما تجدر ملاحظته خلال البحث في تاريخ المنظمات والأحزاب الصهيونية التي لجأت الى تبنّي التعاليم والايديولوجيات الاشتراكية ـ وبالتالي يساهم في إظهار المفارقة الكبرى في طبيعة تلك الاحزاب وأهدافها وسياساتها ـ هو الظاهرة التي تطالعنا في تحوّلات هذه الاحزاب ومساوماتها المتكررة . فحين يشعر الصهيونيون بأن اقتصاد دولتهم مهدد ولا حظّ له بالاستقرار (وهو على هذه الحال منذ قيام اسرائيل !) أو حين تشتد الضائقة الاقتصادية ، نجد الاحزاب الصهيونية في الداخل والخارج تلتفت نحو الدول الغربية طلباً للاستجداء ـ وفي طليعة هذه الاحزاب تلك التي تضع اشتراكيتها على الرفّ لتأخذ ما تريده من الغرب الرأسمالي . ونجد القسم الاكبر من الاحزاب اليسارية الصهيونية على استعداد تام للمساومة على برامجها

ومعتقداتها الاشتراكية ، علّها تحصل على نصيبهـا من المغانم والمساعدات وتحافظ على قوتهـا الانتخابية . وما لاحظـه الفيلسوف التجريبي دافيد هيوم في مقالتـه عن الاحزاب «Essay on Parties» التي ترجع الى عام ١٧٦٠ يصدق الى حد بعيد جداً على اشتراكية هذه الاحزاب الصهيونية المزيفة والتي جرى تبنيها بمقدار ما تخدم المصلحة والهدف الصهيونيين . فقد كتب هيوم آنذاك يقول : « يلعب البرنامج دوراً أساسياً في المرحلة الاولى ، حين يقوم بجمع الافراد المبعثرين (حول بعض التعاليم الاشتراكيـة ، مثلاً ـ المؤلف) ، لكن التنظيم يأتي في المقدمة فيما بعد ، فيصبح « البرنامج » أو « المنهاج » (Platform) ثانوياً . وهذا بالضبط ما نلاحظه فيما يتعلق باشتراكيـة الاحزاب الصهيونية وايدلوجيّاتها المزعومة .

فالنظر الى منافس الماباي في الاشتراكية الثورية ـ حزب مابام ـ والى أعماله السياسية يدفع الى الاعتقاد بأنه لا يقـل صهيونية وعدوانية عنه . وعلى الرغم من مناداة المابام بالحياد ودعوته لاعتماد سياسة الصراع الطبقي كسبيل لتحقيق المجتمع اللاطبقي ومساواة العرب في الحقوق ، نجده يؤيد الاعتـداء الثلاثي على مصر عام ١٩٥٦ ويعارض السياسة السوفياتية تجـاه اسرائيل . والمابام متهم بميله للاتحاد السوفياتي ومعاداته للغرب ـ اميركا وألمانيا على الاخص . لكن عداءه للغرب ورفضه لصفقات الاسلحة مع ألمانيا الغربية او حتى مجرد التعامل مع الالمـان

وقبول التعويضات ، كل ذلك لا يمنعه من التخلي عن صهيونيتـه وعدوانيته . فهو ان عارض اقامة القواعد الغربية في اسرائيل ، فلا يعارض وجود اسرائيل كقاعدة للاستعمار ، لأنه يبقى على صهيونيته مهما غالى في التطرّف الاشتراكي او اليساري . بـل على العكس ، نجده يلحّ على تقوية الجهاز الدفاعي لصـدّ الهجمات العربية وللانتقام بشدة من اعتداءات الحدود. والملاحظ ان المابام بدأ في الهبوط المستمر خلال الخمسينات وفقد الكثير من سيطرته ونفوذه ، بعد أن برز عام ١٩٤٩ كثاني أقوى حزب في اسرائيل . وقد تضافرت عوامل عديدة على اضعاف المابام ـ بالاضافة الى انفصال احدوث هاعفودا عام ١٩٥٤ لتشكّل حزباً بمفردها ـ يأتي في طليعتها ما قلناه عن ميل الصهيونيين للمساومة على الاشتراكية طالما يأتي الخلاص المالي من الغرب وتحوّل الاتحاد السوفياتي نحو تأييد العرب ضد اسرائيل .

وما دمنـا في معرض الحديث عن اشتراكية الاحزاب الصهيونية فلا بد من الالتفات نحو أقصى اليسار لالقاء نظرة على الحزب الشيوعي في اسرائيل ، والمعروف باسمـه الشائع MAQI ، أي Milfaga qomunistit ISRAELIT . فقـد ظهرت الشيوعية في فلسطين بعد ثورة البلاشفة (ثورة اكتوبر الاشتراكية) في روسيا وكان لها دعاتها وأنصارها بـين عرب فلسطين وبين بعض الفئات اليهودية التي كانت تعتنق اشتراكية متطرفة . ويلاحظ الذين درسوا [٣٢] الخلفية التاريخية للحزب

انه انطبـع منذ البداية بعلامتين متباينتين : فقد حاول من جهة ان يجمع بين العرب (وهم أكثرية سكان فلـطـين) واليهود (أقلية) في حزب واحد ، وكان يدرك قادته ، من جهة ثانية ، ان التعاليم الشيوعية والماركسية الصميمة لا تنسجم معصهيونية الجالية اليهودية . ومن الطريف أن نفراً من الاشتراكيين اليهود والمتطرفين لم ينجحوا في الجمـع بين النقيضين : الشيوعيـة والصهيونية ، ففضلوا مغادرة فلسطـين والاستقرار نهائيـاً في الاتحاد السوفياتي. وكان لا بد للحزب أثناء الانتداب البريطاني من الالتفات الى الاوساط العربية في فلسطين لكسب الانصار والمؤيدين . ونحن نعلم ان الأفكار القومية التي تعبّر عن شعور العرب في فلسطين كانت سائدة خلال الثلاثينات والأربعينات . فانصرفت جهود الشيوعيين للعمل على تعريب الحزب ، مع العلم ان الجناح اليهودي أبدى تحفظاته حيال ذلك . فقـد احتل عربيّ منصب السكرتير العـام وجرى التشديد على النشرات والمجلات العربية ، لكن بقيت الاجهزة والكادرات الرئيسية ، على ما يبدو ، في أيدي اليهود الذين حاولوا بدورهم إطـلاق الشعارات المناوئة للصهيونية بقصد كسب التأييد العربي للحزب ومبادئه . ومن المرجّح ان فشل عملية التعريب هذهقد أدّى الى قيام جناحين مستقلين في أواخر الثلاثينات ، راح كلّ منهـا يعمل بمفرده . ومما لا شك فيه ان أكبر ضربة نزلت بالشيوعيين بعد ذلك الحين ـ وهم الذين أرادوا محاربة الصهيونية منذ تأسيس الحزب ـ كانت مبادرة الاتحـاد السوفياتي الى الاعـتراف

باسرائيل ، ١٩٤٨ . ومـع قيام اسرائيـل واجراء الانتخابات الاولى للكنيست عام ١٩٤٩ برز الحزب الشيوعي كأقدم حزب في فلسطين يملك رصيداً من النشـــاط في أوساط العرب . ومن الملاحظ ان تأييده أخذ يزداد بين العرب وفي أوساط المهاجرين اليهود الذين قدموا مؤخراً الى اسرائيل . وقـــد بلغ ذروته في انتخابات الكنيست الخامس عام ١٩٦١ ، اذ تضاعف عـــدد الأصوات التي نالها تقريباً . وجــدير بالذكر ان قادة الحزب من اليهود ولدوا في اوروبا الشرقية وجاؤوا الى فلسطين خلال فترة ما بين الحربين . اما القادة العرب فقد انضم عدد منهم الى الحزب منذ عام ١٩٢٢ .

والواقع الذي يطالع من يحاول النظر عن بعد الى أوضـــاع الحزب الشيوعي الاسرائيلي ومواقفه تجاه اسرائيل والصهيونية لا يخلو من التناقض والالتباس . ففي أيام الانتداب اجتمـــع الشيوعيين العرب واليهود حول معارضة الحكم البريطاني . وبعد قيام اسرائيل لم يرفض الحزب مقوّمات الوجود الاسرائيلي بقدر ما رفض صهيونية القومية اليهودية أو بقدر ما عارض مسألتي توثيق الصلات بين اسرائيل واليهود في الخارج وتشجيع الهجرة الى اسرائيل . ومن الثابت ان هذه التناقضات وتيقّظ الشعور القومي لدى العرب في الارض المحتلة والاضطهاد الذي يتعرض العرب لجميع أنواعه ، هذه كلها قد أدّت الى حصول الانشقاق الاخير . فالجناح العربي في الحزب ، وهو الذي يستميل أكثرية

الاصوات التي ينالها الحزب الشيوعي الاسرائيلي ، رفض التسلط اليهودي وانتهى به التمرد الى تكريس الانقسام . وهكذا انقسم الحزب الى جناح « قومي عربي » وآخر « صهيوني » . وخاض الانتخابات الاخيرة في العام الفائت (٢٢ تشرين الثاني ، نوفمبر ، ١٩٦٥) بقائمة مستقلة تمثل « الشيوعيين الجدد » ، فاز من أعضائها ثلاثة مرشحين .

هذا وقد لاحظ المتتبعون لسير الانتخابات الاسرائيلية ان ارتفاع أسهم الحزب الشيوعي في اسرائيل وقيام الجناح العربي المستقل قد أدّى بصورة مباشرة الى انخفاض معدّل التأييد العربي للماباي والمابام والقوائم العربية التي يدعم الماباي ترشيحها . ولئن اعتبر البعض ان مكاسب الشيوعيين كانت على حساب القوائم العربية المستقلة (كما هي الحال لدى مؤلفي الكتاب الذي أشرنا اليه في الحاشية السابقة) ، فذلك قد يعني عدم اقتناعهم باستقلالية تلك القوائم واعتبارهم ان الحزب الذي يؤيد مشاعرهم القومية العربية يشكل وسيلة أفضل للتعبير عن احتجاجهم وعن مشاعرهم الصحيحة . ولا ننسى أن الماباي هو «حزب الحكومة» ، والمابام قد اشترك في عدد من الحكومات الائتلافية منذ ١٩٥٥ . ولا شك ان التأييد العربي للحزب الشيوعي تكمن جذوره في الشعور القومي لدى العرب وفي رفضهم الصهيونية وما تمثّله من عدوان .

ويكفي الاطلاع على البرنامج الانتخابي للحزب حتى نعرف

الأسباب الكامنة وراء التأييد العربي له . فهو ينادي بالحقوق المتساوية للعرب ويطالب بعودة اللاجئـين الى ديارهم واعادة ممتلكاتهم المسلوبة بكاملها وارجاع المناطق التي استولت عليها اسرائيل ولم تكن من حصتها في مشروع التقسيم . وقد عارض بشدة العـدوان الثلاثي على سيناء ووقف نائب عربي من نوابـه بمفرده يندد بالسياسة العدوانية ويتحدث بصراحة ضد إرسال التحيات الى القوات المعتدية في الجبهة .

ولا خوف على اندماج الحزب في جبهة يسارية موحدة طالما لا يزال على موقفـه الذي ينـدد بالهجرة على نطاق واسـع وبالنداءات التي توجهها اسرائيل الى يهود الاتحـاد السـوفياتي تدعوهم للمهـاجرة ، وطالمـا يستمد قوته الانتخابية من عرب الارض المحتلة في الدرجة الاولى . والواقع ان الدلائل تشير الى امكانية قيـام تعاون بين الجناح العربي للحزب وبـين القوى القومية العربية والناصرية التي لها معاقلها في أوساط العرب المقيمين في الارض المحتلة .

بين اليمين والوسط

الفاشستية والصهيونية العامة

تحدثنـــا فيما سبق عن الأحزاب الدينية المتطرفة التي تشكل جبهة موحدة داخل الكنيست الاسرائيلي وتعرف بـ « الحزب الديني القومي » National Religious Party أو حزب «مفدل» Mafdal الذي يحتل ١١ مقعداً في الكنيست الحالي ويشكل القوة الثالثة فيه من ناحية العدد . وتناولنا الأحزاب الصهيونية التي تنادي بالاشتراكية على طريقتها الخاصة ، وعلى رأسهـــا المابای المتحالف مع احدوث هاعفودا والذي يحتل ٤٥ مقعداً . انما بقي علينا ان نلقي نظرة على تلك الأحزاب الصهيونية التي تشكل الآن الجبهة التي تأتي بعد المـاباي من حيث العدد (٢٦ نائباً) وصارت تعرف منذ الانتخابات الأخيرة بـ « غاهال » Gahal . تضم هـذه الجبهة اليمينية التي يعتبرها البعض بمثابة « حزب المحافظين » الأحزاب التالية : حزب حيروت والجناح المنشق من حزب الأحرار والحزب التقـــدمي الصهيوني [٣٣]

والحزب الصهيوني العـــام . ويبدو ان تحالف هذه الأحزاب الأخيرة مع حركة حيروت وماضيها الارهابي والفاشستي الذي تحاول ستره في حاضرها الحزبي المعارض لحكم الماباي يقضي على اسطورة الليبرالية التي تنسبها هذه الأحزاب لنفسها . فالجناح الليبرالي والتقدمي يكنّ العداء والكراهية لـلف حزب حيروت الارهابي — عصابة الارغون زفـاي ليومي — وللأساليب التي لجأ إليها في تحقيق الاهداف الصهيونية . لذلك عمد إلى التعاون مع الماباي والاحزاب العمالية الاخرى ، لانه يريد حصته من مغانم الحكم ويخـاف على ضياعهـا فيما لو انضم إلى صفوف المعارضة . والمعروف ان بن غوريون جعـل شعار حكوماته الائتلافية : « التعـاون مع جميع الاحزاب عدا حيروت والشيوعيين » واعتبر ذلـك بمثابة السياسة الرسمية للماباي في عهده . وتعاون هذه الاحزاب مع حيروت معناه الحيلولة دون وصولها إلى الحكم ، لان كل وزارة في المستقبـل لا يمكن تشكيلها بدون المـاباي . ومع ذلك حصل التحالف . والعودة إلى جذور كل من الصهيونيين العامـين وحركة حيروت سوف تلقي الكثير من الضوء على فروقات هذه الجماعات التي تنحصر في « المزاج » والرأي المتعلق بوسائل تحقيق الاهداف الصهيونية .

الصهيونيون العامون : حزب المنظمة

ترجع جذورهم إلى أيام المنظمة الصهيونية ، إذ كان الصهيوني

العـــام آنذاك كل من انتمى إلى المنظمة وسدد رسوم العضوية ودفع الضريبة الصهيونيـة وأعلن تقبله لبرنامج المؤتمر الصهيوني الاول (١٨٩٧) (Basel Program) دون الالتفات الى معتقده السياسي العملي فيما يتعلق بالوسائل الكفيلة بتحقيق الاهداف الصهيونية . وبعد محـاولات الصهيونيين الاستعانة بالمبـادىء الاشتراكيـة وظهور المتدينـين في حركاتهم المتعصبـة والمتطرفة ، كان لا بد من الحفاظ على الطابع الصهيوني العـام المنظمة العـالمية . فنشأت الدعوة الى « صهيونية فوق جميع الاحزاب » وانتمى اليها اولئك الذين لم تكن الايدولوجيـة الخاصـة بالنسبة لهم ضرورية . فالهدف العام واحد : المساعدة على استعمار فلسطين . وصاروا يعتبرون انفسهم منذ عام ١٩٠٧ بمثابة الجسر الذي يصل اليمين باليسار داخل الحركة الصهيونية واصبحت تسمية « العام » تعني عدم اشراك الايديولوجيـات الخاصة بالهدف الصهيوني الاوحـد والأبعد . وفي النهاية اصبح هؤلاء يشكلون حزباً قوياً داخـل المنظمة ، كان هو الحزب السائد خلال تاريخ تلك المنظمة الحافل. وفضّلوا خدمة الاهداف الصهيونية وإرساء قواعـد الاستعمار الصهيوني في فلسطين عن طريق جمع المـال وشراء الاراضي وتوطين المهاجرين وتوسّل المفاوضات الديبلوماسية وتوظيف رؤوس الاموال الصهيونية في فلسطين . والواقع ان هؤلاء يمثلون كبـار المتمولين اليهود في الخارج ويضمون الصناعيين والتجار وملاكي الارض والمنتجين الزراعيين في اسرائيـل . ولهم نفوذ واسع في اوساط أرباب

الاعمال والاختصاص والصناعة ومعظم انصارهم في تـل أبيب والمدن المجاورة .

والطريف أن هذه الجماعة كانت تدّعي الابتعاد عن السياسة وتبشر بصهيونية « دون ارتباط سياسي معين » . ثم عادت الى اعتياد الصراحة واعتبرت نفسهـــا من أحزاب الوسط . فقد اكتشفت قيادة هذه الجماعة خلال الثلاثينات ان النفوذ الحزبي واليساري قد أخذ في الازدياد وخافت ان يفلت من يدها زمام أمر السياسة الاستعمارية (الهجرة والاستيطان) التي تسلمتها الوكالة اليهودية ـ التي وقعت بدورها تحت سيطرة الماباي ـ فعمدت إلى تنظيم نفسهـا على شاكلة حزب سياسي . ولا غرو فالسبب الأهم في اعادة تنظيمها يرجع الى اهتمامها بوضع أسس ثابتة للاستعمـــار الصهيوني في فلسطين عن طريق دعم الطبقة الوسطى وتقويتهـــا من جميع النواحي . وقد تشجعت بعد موجات الهجرة الالمانية في الثلاثينات ولجأت إلى جمع شمـــل مهاجري الطبقة الوسطى القادمين من المانيا واوروبا فكان مؤتمر كراكوف (Krakow) في بولونيـا عام ١٩٣٤ حيث خرجت منه حزباً صهيونياً يناوىء جميع الاتجاهـات العمالية الصهيونية التي تعتمد على صراع الطبقات ، لانها رأت ان ذلك يحول دون قيام طبقة وسطى تشكل العمود الفقري للاستعمار الصهيوني في فلسطين وتفرض الولاء السياسي الذي ينسجم مع مصالحهـــا . وراحت منذ ذلك الحين تجمع حولها عدداً من الصهيونيين الذين

تخوفوا من اشتراكية الماباي واحتكارية الهستدروت، ولم يكن من اهدافهم تنفير الرأسمال الصهيوني وغيره .

ولا بد لمن يتتبع نشاطات جماعة الصهيونيين العـاملين وسياسة الحزب الذي أوجدوه من الاعتراف بانهم يمثلون الاستعمار الصهيوني (٣٤) في أجلى مظاهره وفي أعرق مكائده وحيله . ليس ذلك فقط، بـل هم في الواقع صورة طبق الاصل عن الاستعمار الاوروبي منذ ان خرج الى العـالم يبحث عن الاسواق بقصد توسيع التجارة وتصريف المنتوجات . انهم التطبيق الأمثل للاستعمار في صيغته الكلاسيكيـة المعهودة وفي تصميمه على الاستيلاء على مقدّرات بلاد الغير بالطرق التي تخدّر النـاس وتدغدغ رغبـاتهم في الازدهـار والعمران والتقدم، بينما هي تسحب الارض من تحتهم وهم لا يدرون من أمرها شيئاً .

حيروت أو حرية الارهاب

قـد يندهش المراقب لاول وهلة إذ يعرف ان « حزب حيروت » يكاد يكون الحزب الصهيوني الوحيد الذي لم يشترك في اي من الحكومات الائتلافية منذ قيام اسرائيل حتى اليوم . ولا يعني ذلك ان الحزب المتطرف والمغالي في صهيونيته التوسعية لامكان له في حياة إسرائيل السياسية أو ان الماباي تقف وحيروت على طرفي نقيض . بل يعود ابعاد هذه الجماعة الارهـابية

المتعصبة بالدرجة الاولى الى سوء العلاقات الشخصية بين مناحيم بيغن و بن غوريون منذ قيام اسرائيل وسط العدوان والارهاب، وكذلك لحرص الصهيونية على الظهور بمظهر القناعة والاعتدال والسعي المخلص للعيش بأمن واطمئنان وسلام – هكذا يريـد الحزب الحاكم لاسرائيل أن تخدع العالم وتقنعه بأن الماباي لايماشي سياسة حيروت ولا يؤيد مزاعمه التوسعية أو يقرّه على وسائله الغوغائية والارهابية . مـع العلم بأن حيروت يشكل الحزب الثاني في الكنيست من ناحية القوة العددية وله أنصاره ومؤيدوه في جميع أوساط اسرائيل ، إذ هو يدافع عن مصالح الطبقـة الوسطى ويدعو الى اعتماد مبدأ الجهد الفردي في الاقتصاد . ومما يمثل على حيروت أصدق تمثيل ، انه رغم معارضتـه الشديدة للحركة العمالية كما تديرها وتسيطر عليها الهستدروت ، أقدم على ترشيح قائمة مستقلة لانتخابات الهستدروت على أسـاس برنامج منفرد . وجدير بالذكر أن حيروت كانت تفضل إعطاء أصواتها داخل الهستدروت الى أحدوث هاعفودا خلال السنوات الماضية، وذلك ليس حباً بالاشتراكية التي تدعو لها أحدوث هاعفودا ، بل لأنها من دعاة التعدّي والعدوان في السياسة الخارجية – وهو ما يُعرَف في قاموس السياسة الاسرائيلية بالـ Activism[٣٥] أي القيام بنشاط عسكريّ وعدواني ضد الدول العربية ومواجهة التجارب بالرد الوقائي العنيف الذي يردع كل من يهـدّد أمن اسرائيل وسلامتها .

تنحدر حيروت في آرائها وسياستها وتنظيمها من الجناح التحريفي الذي برز داخل منظمة الصهيونية العالمية منذ أن وضع هرتزل معادلة الصهيونية في برنامج بازل المشهور . وقصة الغموض الذي ينسبه التحريفيون الى معادلة هرتزل تنبع من صميم الفكرة الصهيونية ودعوتها الاستعمارية . فقد راح الصهيونيون يتبارون في تفسير الهدف المباشر للحركة الصهيونية وفي الوسائل الكفيلة بتحقيقه . وقد أشرنا فيما تقدم الى سعي الصهيونية الحثيث في البحث عن مقومات ما تبرر بها فكرة القومية اليهودية . فالارض التي أرادت أن تنتسب لها هذه القومية كانت في نهاية المطاف فلسطين العربية . واللغة التي كانت وسيلة تفاهم معظم أعضاء المؤتمرات الصهيونية كانت اليديّة (Yiddish) لا العبرانية التي لم يتكلمها إلا فئة قليلة من المتدينين الذين حافظوا على الاهتمام بالدراسات اللغوية . والسيادة السياسية والقومية لا بد لها نهائياً من الرقعة الجغرافية لتمارس نفسها .

والباحث في الازدواجية المتعمدة لدى هرتزل وأمثاله لا يسعه الا الاعتراف بمسألة لا تقبل الجدل اطلاقاً : وهي ان ما يُعرف عن معارضة هرتزل لكل صياغة متطرفة لأهداف الصهيونية (مع العلم ان يومياته تكشف عن نواياه الحقة !) كان من قبيل الدبلوماسية والتكتيك الذي ينتظر اختيار الوقت المناسب . فقد كان هرتزل يعمل على مفاوضة الاتراك العثمانيين ويكتب الرسائل الى الامبراطور الالماني غليوم الثاني عام ١٨٩٧

محاولاً طلب مقابلته وكسب تأييـده للفكرة الصهيونية [٣٦] . ولم يشأ زيادة مخاوف الاتراك آنذاك لأنه أراد قطـع الطريق على ردود الفعل العدائية ضد المستعمرات والمستوطنات الصهيونية في فلسطين ولعدم ميله الى الكشف عن الهوية الحقيقية لحركة « محبي صهيون » في روسيا القيصرية . ففضّـل ترك المسألة مفتوحة مع اقتناعه الضمني بأنها محددة الاهداف . وسـايرته المنظمة ظاهرياً في انتهاج هذه السياسة حفاظاً على وحدة العمل والهدف الأخير، الذي لم يكن موضوع خلاف على الاطلاق .

ويحكى أن هرتزل التفت في مطلـع هذا القرن (١٩٠٣ و ١٩٠٤) الى استعمار افريقيا الشرقية بمثابة نقطة انطلاق عابرة تجعل فلسطين في متنـاول الصهيونية . لكن المؤتمر السابع (١٩٠٥) ، الذي انعقد بعد عام من وفاة هرتزل ، فضّـل الكشف عن نوايا الاستعمار الصهيوني الحقـة بغضّ النظر عن جميع الاعتبـارات القانونية أو الحقوقية ، لان الفتور دبّ في نفوس الاعضاء ولا بد من إذكاء شعلة الحماس في نفوسهم وتعليلها بقرب موعـد التحقيق . وفي عام ١٩٠٨ تسلم « الصهيونيون العمليون » زمام قيادة المنظمة وسيطروا على سياستهـا . وما لبث هؤلاء أن لجأوا الى اتباع المخطط الذي وضعه هرتزل حين نشأت مسألة الخلاف حول الوسائل من جديد وقام الجنـاح المتطرّف ليرث عنهم موقفهم ابّان رئاسة هرتزل . قد يكون ذلك مجرد صدفة تاريخية ، لكن تاريخ الصهيونية يشـير الى

العكس تماماً . فاللجوء الى مختلف الوسائل التي تكفل تحقيق أهداف الاستعمار الصهيوني في فلسطين كان وارداً منـــذ نشأة الصهيونيـــة . والظهور بمظهر من يناوىء الاتجاهات المتطرفة داخل المنظمة لا يخلو من الحسنات التي تؤثر على سير السياسة الصهيونية في كسب الرعاية والدعم والتأييد . وهكذا توصل الصهيونيون العمليون الى الحيلولة دون جعـــل الخلاف الظاهر حول الوسائل يقف حجر عثرة في سبيل الهدف الأوحـــد . فأفلح وايزمان آنذاك في اقنـــاع الاستعمار البريطاني بالتقاء أهدافه مع الصهيونية وبضرورة « العطف » على مطامعها — وكان وعد بلفور في عام ١٩١٧ . وأصرّ الصهيونيون العمليون بقيادة وايزمان على اتباع سياسة تدريجية أطلقت عليها تسمية « الصهيونية العضوية أو التطورية » (Organic Zionism) .

لكن دعاة ادخال التعديـــل على معادلة هرتزل — وعلى رأسهم صحافي روسي المولد اسمه فلاديمير جابوتنسكي (١٨٨٠— ١٩٤٠) Vladimir Jabotinsky — أصرّوا على صياغة المعادلة من جديد دفعاً للالتباس والغموض ، وعُرفوا منذ ذلك الحين بـ « التصحيحيـــين » (Revisionists) . أما الصهيونيون الذين حافظوا على ولائهم لسياسة المنظمة فقد اصطلحوا على تسميتهم بـ « التحريفيين » . ويشكل هؤلاء سلف حزب حيروت الحالي ، بينما أفكار جابوتنسكي تمدّهم بالاساس النظري والعملي لمـــا يسمّونه بالواقعيـــة السياسية . وهم يستمدون من رؤيتـــه

الاستعمــارية والارهابيـــة كل مخططــاتهم وكأنهــا من وحي نبيّ .

تنادي تحريفية جابوتنسكي (والواقع انهــا تحريف للصياغة الهرتزلية فقط . ولا تجرّف الاهداف الحقيقيـــة للصهيونية الى درجة بعيدة !) بوجوب الاعلان على ان الهدف الصهيوني الاخير هو اقامة دولة يهودية ضمن الحدود التاريخية لاسرائيل . وتعتبر زوال العداء للسامية من الوجود رهناً بإقامة تلك الدولة . لذلك تشدد على ضرورة المضي في الهجرة على نطاق واسع ومنظم الى فلسطين . وتدعو لاقامة تحالف علني مع بريطانيا لكي تتوفر للصهيونية مقوّمات ممارســة السيادة القومية الحقـــة . ولا ننسى أن جابوتنسكي عاد واستقال من اللجنة التنفيذية لمنظمة الصهيونية العالمية عام ١٩٢٣ متهماً أعوانه بانعدام الواقعية السياسية وبمسايرة بريطانيا أكثر مما يجب ، إذ اعتبرها تماطل في الوعد . وقصة جابوتنسكي داخل المنظمـــة وخارجها هي التربة التي تنمو في وسطهــا جذور حركـــة حيروت [٣٧] . فقد اتهمه « الصهيونيون العمليون » آنذاك بأنه ينادي بمخطط خيالي غير قابل للتحقيق ونبه الواقفون خارج المعسكر الصهيوني الى انه يتجاهـــل حقوق العرب بصورة متطرفة ، بينما هم لم يشأوا الاعلان عن تجاهلهم للحقوق العربيـــة الى هذا الحد . ولم يثنه عن عزمه وتصميمه سقوط الاقتراح الذي تقدم به للمؤتمر الصهيوني عام ١٩٣١ ليطالب بدولة صهيونية على

ضفتي الاردن . فاستقـــال من الحركة الصهيونية عام ١٩٣٥ لينشيء منظمته الخاصة التي ضمت إرهابيي المستقبـل من يهود الطبقات الوسطى في اوروبا الشرقية وعلى الأخص بولونيـــا . وأطلق عليهـــا تسمية المنظمـــة الصهيونية الجديـــدة : (New Zionist Organization) . وكان قد حاول وهو في الخارج (طُردَ من فلسطين عام ١٩٢٩) أن ينشيء منظمة عماليـــة تنافس الهستدروت وترعى مصالح الطبقة الوسطى ولكي تحول دون استغلال الجماعات الاشتراكية لمســألة الصراع الطبقي . ونادى بتثبيت دعائـــم الاستعمار الصهيوني عن طريق الهجرة الجماعية والتصنيع السريع وتشجيع الجهد الفردي لإقامـة مجتمـع صهيوني متماسك يتجه في طابعه العـــام نحو اليمين المتطرف .

ومع اندلاع الثورة العربية في فلسطين (١٩٣٦ — ١٩٣٩) وجد جابوتنسكي وأنصاره الفرصة المناسبة لتحـــدي الموقف الصهيوني العام وفرض السياسة الانتقامية التي تعتمد الارهـاب بغية الوصول الى سياسة الأمر الواقع : أي انه لا يمكن الحصول على موافقة عرب فلسطين إلا بعد اقامة الدولة الصهيونية بالعنف والارهـــاب وفرضها على معارضيها . وهكذا انبثقت عن التحريفيين تلـك المنظمة الارهابية التي عُرفَت بـ « الإرغون زفاي ليئومي» (Irgun Zvai Leumi) عـــام ١٩٣٧ ، وراحت تطبّق الأيديولوجية التحريفية على حسابها الخاص ، انما لصالح

الهدف الصهيوني البعيد المدى . وليس انشقاق العصابة التي قادها ابراهيم شترن (١٩٤٠) وعرفت باسمه منذ ذلك الحين [٣٨] سوى المرحلة قبـل الاخيرة لبروز حيروت بمظهر الحزب السياسي . وتأتي عصـابة شترن « المحـاربون لحرية اسرائيـل » Lohami Herut Israel بمثابة المزايد الذي عقـد العزم على مسابقة أقرانه الصهيونيين في الارهاب والعُنف . فهي لم تتردد ، انسجاماً منهـا مع المخطط الصهيوني الشامل ، في السعي وراء اقامة اتصالات مع ايطاليا الفاشستية لحمل موسوليني على تأييد سياسة الصهيونية . ويحكى ان بعض قادتها عاد بعد نهاية الحرب واتجه نحو الاتحاد السوفياتي بغية اقامة اتفـاق عملي تستغله لصالحها [٣٩] .

أما حيروت في صيغتها الحالية فقد نشأت عند انشقاق عصابة الارغون عن الحركة التحريفية التي انضمت مجدداً الى منظمـة الصهيونية . مع العلم انها تتبنى البرنامج الذي وضعه جابوتنسكي بحذافيره وتسير على خطواته . وهكذا لم تستمر حالها طويلاً في الانفصال ، فعادت واندمجت مع بقية العناصر التحريفيـة والارهابية لتظهر على مسرح السياسة الاسرائيلية منذ ١٩٤٩ بمثابة حزب حيروت القائم حالياً بزعامـة الارهابي العريق مناحيم بيغين — والذي تُذكّر جولاته الانتخابية وخطاباتـه الفوغائية ، التي تسبقها مواكب عرض العضلات ، كل من شاهدها

من المراقبين الاجانب بتلك الجولات والمظاهر التي أتقنها ادولف هتلر من قبله .

ولا يختلف حزب حيروت عن بقية الاحزاب الصهيونيـة الاخرى من ناحية ارتباطاته الخارجية ومنظماته التي تضم كثيراً من اليهود في الخارج وتتفرع عن الحزب الحالي . بل يجدر بنا أن نلتفت من خلال تلك الارتباطات المشبوهة الى الوجه الحقيقي لحزب حيروت كما يبرز لنا من الواقعـة التالية : يكثر مؤيدو حيروت بين اليهود في جنوب افريقيا – بلاد التفرقـة العنصرية التي تلتقي واسرائيل على صعيد واحد . وسوف نتحدث في الفصل اللاحق عن التقارب الفكري والعملي بين الصهيونية الكتائبية وسياسـة التمييز العنصري المعروفـة بالـApartheid. ومع ان حكومة اسرائيل التي يسيطر عليها الماباي عمدت الى قطـع علاقاتها مع اتحاد جنوب افريقيا لكي تبدو بمظهر التقدميـة والتحرر وتجاري معظم البلدان العربية والافريقية والآسيوية التي لجأت الى تلك الخطوة ، فان حيروت ولا شك غير مقتنع بذلك كله ويعارض سياسة الحكومة ودبلوماسيتها المفرطـة . وهناك أصوات كثيرة في اسرائيـل وخارج حزب حيروت تنادي بأن ذلك يلحق الأذى بالمصالح اليهودية والصهيونية ، وإن كان يخـدم أغراض الدبلوماسية الاسرائيلية (٤٠) . ولا يسعنا إلا اعتبار هـذه الميول والاتجاهات من صميم الصهيونية

في جمعها بـين الاستعمار والتفرقة العنصرية بشكل فاضح لا مثيل له [٤١] .

أما حديث تحالف حيروت مع الاحزاب الصهيونيـة التي جئنا على ذكرهـا لتشكيل جبهة يمينية تعارض حكم الماباي والاحزاب التي تدّعي الاشتراكية لكي تحتلّ مكانها فلا نحسبه بمثابـة الابتعـاد عن خطوات جابوتنسكي أو « التحوّل الايديولوجي» الخطير الشأن. وقد أتينا على ذكر مسألة التصويت داخل الهستدروت لصالح احدوت هاعفودا الاشتراكية لأنها تلتقي مع حيروت في التشديد على النشاط العدواني ضـد البلاد العربية . ومن المرجح أن حيروت لجـأت الى كبت بعض شعاراتها واخفاء معالمها الارهابية والتوسعية لكي تحقّق التحـالف المنشود ، أملاً بالوصول الى مقاعـد الحكم عن طريقه . ويبـدو انها « تبنّت » معظم آراء الاحزاب التي تحالفت معها ؛ والأصح أن نقول كيّفت نفسها ظاهرياً لكي تلتقي مع الصهيونيين الآخرين ــ بعـد الفراق القديم داخل المنظمة العالمية ! والملاحظ ان قوة حيروت في تزايد مستمر منذ راح الحزب يوجه اهتمامه الى عناصر الشبـاب والمهاجرين الجدد بين اليهود الشرقيين . وقد جمع حوله الكثيرين من الناقمين على الوضع الراهن ، مع ان السياسـة الخارجية ومسائل الأمن هي التي تحتـل المرتبة الاولى في تفكير قادة

الحزب وبرامجهم السياسية . وقد استمر الماباي أيام بن غوريون في رفض الحكومة المطالبة بالعمل على نقل بقايا جابوتنسكي الى اسرائيل ، تنفيذاً لوصية المطرود ، حتى جاءت حكومة اشكول تستجيب لطلب حيروت وتعمل على اعادة دفنه في تموز (يوليو) ١٩٦٤ .

الواقع السُكّاني والحياة الحزبية

الدين والعنصرية

قامت الدعوة الصهيونية كحركة مناوئة لكل عمليـــات التحرر والذوبان التي اتاحت لليهـــود الاوروبيين فرصة التمتع بكافة حقوقهم والخروج من عزلتهم للاندماج في تيار حيـــاة مجتمعاتهم والانصهار في بوتقتها . (٤٢) ولكي تبرر استعماريتها آنذاك لجأت إلى تقليد القوميـــات الاوروبية في القرن التاسع عشر واعتبرت اليهود امة واحدة تشكل قومية متميزة ولهـــا معالم واضحة . فراحت تعمل بكل الوسائل الخفية والمكشوفة للاستيـــلاء على أرض فلسطين حيث احتلت البلاد وأقامت دولة إسرائيل بعد ان نقلت اليهـــا الاحزاب التي كانت بمثابة صيغ مختلفة للفكرة الصهيونية الواحدة أو طرق متعددة نحو الوصول الى الهدف الصهيوني الواحد.

وحين يقف بن غوريون عـــام ١٩٥٧ ليعلن ما يلي : « في اسرائيـــل وحدها يستطيع اليهود ان يكونوا احراراً ، كيهود

وكبشر » ، لا بد من ان تعكس أوضاع المجتمع الاسرائيلي هذه الوقائع والمقومات التي يتحدثون عنها . فمن مجرد النظر إلى التركيب السكاني داخل اسرائيل نجد انفسنا أمام اسرائيليين على الأقل : اسرائيل اليهود الذين قدموا من اوروبا وعلى الأخص من شرقها واستعمروا البلاد في ظل شعارات الرواد والمستوطنات الزراعية وحملوا معهم احزابهم ومنظماتهم وأفكارهم الأوروبية ثم اقاموا في فلسطين خلال الفترة التي تعرف بـ «اليشوف» اي «المستوطن» وتمتد في عرفهم من ١٨٨٠ – ١٩٤٨. واسرائيل المهاجرين الجدد الذين جاؤوا لان الصهيونية أرادت جمع شملهم على طريقتها فوجدوا أنفسهم غرباء عما حولهم ولم يجدوا حريتهم في ظل المثالي الأعلى الصهيوني . اسرائيل التي تحكمها أقلية اوروبية تنتمي الى اليهود الاشكنازيين واسرائيل المهاجرين المحكومة التي ينتمي أكثرها الى اليهود السفارديين أو الشرقيين . وأخيراً ، اسرائيل التي يمارس فيها المتعصبون الدينيون سلطات واسعة ويعملون على اعتبار التوراة دستوراً للدولة والحاخام الاكبر بمثابة وزير للداخلية واسرائيل التي تدّعي الحرية الدينية والعلمانية وتنادي بالاشتراكية والتقدمية ويبقى فصلها للدين عن الدولة من قبيل المساومة والتمني .

والواقع اننا أمام تنافر وتناقض يخترق المجتمع الاسرائيلي ويشطره الى معسكرين ثقافيين يتحدّر كلّ منهما من أصول مختلفة كل الاختلاف وينظر الواحد منهما للآخر شزراً . حتى

ان من يراقب هذا التنافر العنصري والثقافي ، الذي جمعتــه الصهيونية في فلسطين من ٩٢ بلداً فراح يتخاطب بحوالي سبعين لغة ، لا يسعه إلا الوقوف على حقيقة الدعوة الصهيونية والتأكد من صحة انتسابها للاستعمار والعدوان في أبشع أشكاله . ولنا في اعتراف مثقف اسرائيلي خير برهان على ذلك : « لقد أقيمت دولة ، لكن علينا الآن خلق أمّة » (٤٣) .

فاليهود الشرقيون أو السفارديون يشكلون أكثر من نصف سكان اسرائيـــل (بين ٦٠ أو ٧٠ بالمئة) . ومعظم هؤلاء جاءت بهم الصهيونية من شمال افريقيا وآسيا والشرق الاوسط ولون بشرتهم يميل الى السمرة . وهم بالتـــالي يشكلون أعلى نسبة من الأميين ويبلغ دخلهم ثلاثة أرباع معدّل الدخـــل الاسرائيلي ، ويعيشون في أوضاع أقل ما يقال فيها انها أسوأ بكثير من أوضاعهم السابقة في المجتمعات التي اقتلعوا منهـــا . والسبب الكامن وراء هذا الإنقسام ينبثق بدون شك من نظرة اليهود الى بعضهم البعض : فالإشكنازيون يعتبرون أنفسهم بناة اسرائيل وحصن الثقافة الغربية ومنجزاتها ونظرتها الى الحيـاة والانسان . وقد تولّد في نفوسهم شعور باحتقار الشرقيين وعدم الركون اليهم أو الاتكال على مقدرتهم في شيء . أوَ ليسوا هم حصيلة الثقافة الغربية المتفوّقة في ميادين العلم والفكر والصناعة والتقنية والانتاج !؟ هذا التفوق يؤهلهم إذاً لممارســة دور الأسيـــاد والسيطرة على مقدرات البلاد والإحتفاظ بوظائف

الدولة والقبض على زمام السياسة والاقتصاد . ممـا ولـّد لدى اليهود الشرقيين شعوراً بالمرارة والتبعية والتفرقة . فهم ينظرون الى الغربيين نظرة العبد الى سيده . وقد بدأوا يشعرون بأن « مواطنيهم » يمارسون أسوأ أنواع التفرقة العنصرية والاجتماعية والمعيشية ضدهم . ويعرفون ان الاشكناز يتخوفون من فقدان سيطرتهم على كل شيء فيما لو قدر لأكثرية السفارديين ان تحصل على النفوذ والتأثير الذي يتناسب مع عددهـا . فالإشكنازيون يخشون الذوبان في خضم السفارديين، لذلك عمدوا الى إخضاعهم واحتقارهم والحيلولة دون سيطرتهم . وهم في ذلك كله يدافعون عن بقائهم وتفوقهم الحضاري . أما الحساسية الشرقية فقـد وجدت من الصعب التخلي عن ثقافتها وتقاليدها وتغيير لون بشرتها إكراماً للذوبان في تيار الثقافة الغربية وحفاظـاً على المصالح الغربية .

وقد عبـّر يهودي عراقي عن تلك المرارة في نفوس الشرقيين التي نتجت عن احتقار الغربيين لهم بقوله : « يريد الاشكنـاز ابقاءنا في الدرك الاسفل ؛ نحن القاعدة وهم رأس الهرم . نأتي الى اسرائيـل هرباً من التفرقة . ولا نجد بديلاً عنهـا سوى التفرقة »[٤٤] .

هـذا الواقع السكاني الذي يتميز باتساع الهوة الثقافية بين اكثرية اسرائيل السفاردية والأقلية الاشكنازية الحاكمة فيها، وينعكس وضعاً دائمـاً من التوتر العنصري ، ينفجر بين الحين

والآخر ليعلن عن وجود التمييز العنصري في الدولة التي اقامتهـا الصهيونية تحت ستار الحرية والديمقراطية والمساواة . ويبدو ان معظم الاحزاب الاسرائيليـة تنظر الى المسألة من ناحية كسب الأصوات التي تتوافر في اوساط اليهود الشرقيين . وممـا يدعو الى الدهشة والتعجب ان تمثيل الاكثرية الشرقية داخل الكنيست لا يتناسب مطلقاً مع قوتهـا العددية . ومن المرجح ان هؤلاء المهاجرين الجدد وجدوا انفسهم تحت رحمة الاحزاب وسيطرتها، اذ تأتي معظم المغانم والمكاسب عن طريقهـا . وليس في وسع الفرد داخل اسرائيل البقاء خارج الاحزاب ، لانه بذلك يحرم نفسه من امكانية الحصول على عمل أو وظيفة . والانتماء الى الحزب وحده قد يأتي مخيباً لآماله . فالأحزاب تحتفظ بالوظائف لاعضائها القدامى . والافضليـة تعطى على اساس القدم في عضوية الهستدروت أو القدم في فلسطين . حتى يجد الفرد نفسه وسط دوامة من المحسوبية والروابط الاثنية، بين اليهود القادمين من بلاد واحدة والناطقين بلغة واحدة، والعضوية في الهستدروت.

وقد أدّى ازدياد التململ في اوساط اليهود الشرقيين الى اهتمام بعض الاحزاب بمشاكلهم علّهـا تكسب اكثر عدد ممكن من اصواتهم . ومن المعروف ان حدة التوتر العنصري بين الشرقيين الملونين والاوروبيين البيض قد اشتدت وانفجرت في اضطرابات عنصرية دامية — على غرار الاضطرابات الدينية التي تصل الى حد احراق الكنيس أو رجم من يخالف قانون السبت — ألقت

الرعب والفزع في نفوس القابضين على زمام الامور في اسرائيل. فقد عمد القـادة السياسيون وزعماء الاحزاب الى استرضاء اليهود الشرقيين . وسارعوا الى ضم ممثل عنهم الى لوائح الترشيح وضمنوا له الفوز (٤٥) . وكانوا في السابق ينسبون النسبة الضئيلة لتمثيل اليهود الشرقيين الى عدم اهتمام هؤلاء بالسياسة وضعف حماسهم للاشتغال في شؤونها . واحياناً كثيرة لتعذر الحصول او العثور على مرشح السفارديين . وقـد بلغ حماس الأحزاب الأوروبية المسيطرة أقصاه خلال انتخابات الكنيست الحالي والذي سبقه ، إذ أرادوا رفع العتب عن انفسهم والظهور بمظهر من يغـار على مصالح هؤلاء ولا يقـيم وزناً للتمييز العنصري . فقـد ضم الصهيونيون العامون إلى قائمة مرشحيهم المضمونين ، مثلاً ، نجل الحاخام الاكبر للسفارديين والبالغ من العمر ٢٣ عاماً. مع العلم انه لم يسبق له ان اشتغل في السياسة الصهيونية العامة او تعـاطى السياسة على الاطلاق (٤٦) .

ولا غرو فـإن تزايد قوة اليهود الشرقيين ـ وهي لا تزال بعيدة عن ان تصبح متناسبة مع عددهم ـ هي من أهم العوامل التي تدفع اليهود المتحدرين من اصل وثقـافة اوروبيين ، والذين يسيطرون على اجهزة منظمة الصهيونية العالمية ، إلى الالتفات نحو اليهود المقيمين في الاتحاد السوفياتي كامكانية يريدون اللجوء إليها لأحداث التوازن بين الفئتين . فالصهيونيـة لاتزال ترفض الاعتراف بإفلاس فكرتها من الداخل . وقادتها الذين ادركوا

قابلية هذه المسألة للانفجار ادركوا ايضاً ان « الزمن » لا يمكنه حلّها والقضاء على تناقضاتهـا . فالزمن يعمل ضدها على الأرجح ولن يكون من السهل عليهم إيقاف سير الزمن . ومما لا شك فيه ان التصادم الحضاري في هذا الواقع الحافل بالتناقضات لا يمكنه ان يؤدي إلى التماسك والالتحام ما دامت الاقلية التي تنتمي إلى الحضارة الغربية المتفوقه [٤٧] لم تفلح في إقنـاع المنتمين إلى حضارة السفارديم بانها لا تنظر إليهم باحتقار أو تعمل للقضاء على معالم تلك الحضارة ومظاهرها .

فالتوتر الذي يسود علاقات هاتـين الفئتين داخل اسرائيل والعنصرية الكامنة في النفوس واشتداد حدة الأزمة بين المتدينين والعلمانيين التي تنعكس على كثير من المسائل السياسية والاجتماعية والشخصية — هذه كلها من الأمور التي لا تحلها الصهيونية إلا حين تتغلب على نفسها وترتد عن عنصريتها الأساسية التي تشجع اليهودي على اعتبار نفسه من غير طينة الآخرين ومعدنهم الثقافي. والعنصرية الصهيونية تكمن في صلب الفكرة التي أدّت إلى قيام إسرائيل وفي محاولة الوقوف بوجه عمليات الاندماج والذوبان. وليس بمستبعد ان تلجأ الصهيونيـة إلى تشجيع العداء للسامية لكي تبرر وجودها ، مـا دام الكثيرون من دعاتها يربطون بين زوال العداء للساميـة وزوال اليهود بصورة مباشرة ! واللجوء إلى اصطناع الاضطهـاد وتخيله كان ولا يزال من الوسائل التي تعتمدها الصهيونية في تبرير مقومات وجودها .

ويكفي إيراد الحجج التالية للتدليل على العنصرية الكامنة في صميم التفكير الصهيوني . وهي شبيهة إلى حـد بعيد بالحجج التي يلجأ اليها دعاة التفرقة العنصرية في جنوب افريقيا (٤٨) .

أ – الصهيونية بمثابة من يأتي بالمدنية الى أهـل البلاد لتحضيرهم .

ب – الأهالي يهملون الأرض ولا يستغلون خيراتها.

ج – أعمال التمييز والتفرقة هي بمثـابة الحالة المؤقتة حتى يتسنى للصهيونية تثبيت دعائمهـــا – إذ ذاك يمكن الدخول في طور الشراكة الحقة .

د – الانســان العادي في البلاد لا يهتم بالسياسة كثيراً .

هـ – كل اضطراب أو مقـــاومة من الأهلين هو بمثابة التحريض المصطنع كلياً .

و – السكان الاصليون ليس لهم على كل حال اية حقوق اصلية في البلاد .

ز – التصور الحسابي المجرد لديموقراطية الأكثرية وحكمها هو مسألة بالغة الخطورة .

هذه الحجج وأمثالهــا نشأت مع الفكرة الصهيونية ونواياها

الاستعمارية ولا تزال راسخة في أذهان الكثيرين من الصهاينة . فهي تعمد في معظم الاحيان الى كتمانها لتعلن عن ظاهرهـــا المبطن فقط وتستدر عطف العـــالم ومساعدته . ولا نغالي حين نرى انعكاسها الواضح المعالم في موقف اليهود الاوروبيين تجـــاه « مواطنيهم » من الشرقيين داخل اسرائيل . فالصهيونية تقوم عليها في قيام دولة اسرائيل والدولة بأحزابها الحاكمة وأقليتها المتفوقة « والمتمدنة » تمارس هذه العنصرية ضد يهودها الشرقيين واخوتها في الدين و « اليهودية » !

خاتمـــة

حين نستحضر ما سبق وقلناة أو أشرنا اليه في نظرتنا الى الاحزاب الاسرائيلية ، من جذورها ونشأتهـــا التاريخية الى علاقتهـا بالدين اليهودي في اوروبا الشرقية على وجه الخصوص وتوسلهـــا الاشتراكية كأساس لتبرير الصهيونية ، ومن اللجوء الى الاستعمار على صورة التعمير المبطن والاستيلاء على الاراضي والسيطرة على مقـدرات الاقتصاد بتوظيف الرأسمال اليهودي إلى استخدام العنف والارهاب والعدوان والاعتنـاق الكتماني للعنصرية والتفرقة في أبشع مظاهرها ـ حين نستحضر ذلـــك كله ، تبدو أمامنا أحزاب إسرائيل وكأنها مجرد صيـغ متعددة لتحقيق الهدف الصهيوني الواحـــد : استعمار فلـسطين بقصد « تعميرها » وإقـامة دولة صهيونية على أرضها ، تكون بمثابة قلعة من قلاع الاستعمار وتدّعي انهـــا بلد الأحزاب المتعددة والحريات والديمقراطية والتقدمية . والواقع ان المراقب يجـد نفسه امام نوع جديد من انواع حكم الحزب الواحد الذي يضمن استقرار مركزه عن طريق التسويات الداخلية التي تحافظ على

الوضع الراهن وتؤمن تجنيـد القوى الصهيونية لخدمة الأغراض العدوانية الاسرائيلية . وليست العلاقات التي تنميهـا هذه الاحزاب والمنظمات مع فروعهـا في الخارج ومع منظمة الصهيونية العالمية سوى الطابع الحقيقي لارتباطاتها الاستعمارية ومصادر قوتها ونفوذها .

ولنا في عبـارة وردت في مذكرة قدّمها زعماء الحركة الصهيونية الى ألمانيا القيصرية وهم على بينة من أمر الأمبراطور غليوم الثاني في طموحه لأن يصبح حامياً لبلاد الشرق الأدنى ووصياً عليهـا ، وفي خيبة أمله من جراء مكاسب الاحزاب الليبرالية والتقدمية في انتخابات بلاده آنذاك ، خير دليل على التدجيل الصهيوني في محاولتـه لاستمالة الدول الكبرى ، بشخص القيمين على سياستهـا ، نحو العطف على مطامعه هو . فقد التفت هرتزل والصهيونيون آنذاك نحو المانيـا والسلطان العثماني وقيصر روسيا،وجاء خلفاؤه يعلقون الآمال على بريطانيا للحصول منها على وعد،وثم اصبح الاعتماد المتبادل على الاستعمار الغربي يشكل الجزء الأهم في سياسة اسرائيل وبرامج احزابها الصهيونية . ولا تزال عبـارتهم صادقة في الكشف عن نواياهـم :

« نحن نريد ان نقيم على الشواطيء الشرقية للبحر الابيض المتوسط حضارة عصرية ومركزاً تجـارياً ، يكونان دعامة للسيادة الالمانية مباشرة أو غير مباشرة.

وستكون فلسطين عن طريق الهجرة اليهودية قـاعدة سياسية وتجارية ، بل صخرة ألمانية–تركية ، كصخرة جبل طارق على حدود المحيط الانكليزي – العربي ».

فقد لجأ الصهيونيون في كسب التأييد لدعوتهم الاستعمارية الى ملاقاتها على الدوام بمصالح الاستعمار اينما وقعوا على مطامعه – في المانيـا وفرنسا وانـكلترا وروسيا القيصرية وسلاطين بني عثمان واميركا م وحـاولوا اللعب على المكاسب الحاصلة من جراء تحقيق دعوتهم والنفع الذي سوف تعـود به على الشرق والغرب : على العثمانيين آنذاك والدول الاوروبية المتسابقة على الفوز بحصتها الاستعمارية والطامعة في اقتسام تركة الرجـل المريض . ولم تكن المنظمة الصهيونية سوى العمل المنظم لتجنيد هذه الوسائل والمكائد كلهـا وإقناع الاستعمار بالفوائد التي سوف يجنيها لنفسه من جراء التعاون والتأييد. وليست الاحزاب التي قامت قبل المنظمة وداخلها وعملت بواسطة اجهزتها سوى صورة عنها. واذا كان هرتزل قد اختار وصف منظمة الصهيونية العالمية آنذاك بانهـا « الدولة اليهودية في التكوين » ، فلا عجب ان نجـد الاحزاب الصهيونية التي توسلت الاستعمار والارهاب لخلق اسرائيل بمثابة جماعات مصغرة للدولة المغتصبة، يعمل كل منها بوسائله الخاصة من ضمن المخطط الصهيوني العام ويتـوسل الطابع الايديولوجي الذي يتيح له الظهور بمظاهر التنوع والتعددية . فالتنافس والتطاحن الحزبي داخل اسرائيل

تنتهي ديمقراطيته المزعومة على عتبة المصلحة الصهيونية العليا في الدفاع عن كيان اسرائيل العدواني وفي اللقـــاء الفاضح مع مصالح الاستعمار القديم – الجديد .

والتصنيف الذي يجريه البـــاحثون لعقائد هذه الاحزاب يتوقف عندصهيونيتها لانهابمثابة القاسم المشترك والطابع المميّز لها جميعها . وهو بالتـــالي مسألة داخليةلا تتعدى كون هذه الاحزاب قد نشأت في ظروف مختلفة وتلونت بتلك العقائد والتعاليم التي شاء لها مؤسسوها ان تتوسلها ، لكي تعمل بالطرق المختلفةوتحظى بتأييد شتى الفئات الصهيونية في العالم . فالهدف هو هو ، لا يتغير ولايتبدل : إقامة إسرائيل كقاعدة للصهيونية وإغتصاب فلسطين بكل ما أمكن من الوسائل ، الرأسماليـــة منها وتلك التي تدّعي الاشتراكية وتعمل تحت ستـــار « دين العمل » واستصلاح الأرض للتنعم بخيراتها والظهور بمن يكسب خبزه بعرق جبينه .فالطيف الايديولوجي الذي يعتبره الباحثون بمثابة الطابع المميّز للأحزاب الإسرائيلية ، حتى انهم لا يألون جهداً في العمل على ترتيبهامن أقصى اليمين مروراً بالوسط حتى أقصى اليسار ، يعكس تصميم الصهيونية على اللجوء إلى مختلف العقائد والأفكار لتثبيت دعائمها الاستعمارية وعلى ترك اليهود الذين تقتلعهم من مختلف البيئات الحضارية والفكرية يستمرون في حيــاتهم السالفة من ضمن إطارهـــا الأوسع . ولا غرو فان ذلك يؤمن للدعوة الصهيونية ان تستغل تنوع العقائد والافكار وتوجهها نحو الهدف الأبعد ؛ وهو بالتالي يساعدها على الظهور

بمظهر من يرعى التعدد والتنوع وينادي بالتساهل والحرية على انها إحدى المظاهر الأساسية للمجتمعات الديمقراطية الحديثة . ولقد تبين لنا من خلال نظرتنـا إلى الأحزاب الاسرائيلية ان الواقع هو عكس ذلك تماماً . فالأحزاب المسيطرة على جهـاز الحكم تبدو وكأنهـا تجمع المتناقضات على صعيد التسوية لكي تحافظ على الوضع الراهن وتُبقي عليه . اذ نجدها تأتلف وتتعاون مع مختلف الاتجاهات التي تبدو وكأنهـا أبعد ما تكون عن عقائدهـا وبرامجها السياسية وتدّعي الابتعاد عن أقرب ما هو إليها والى طبيعة الصهيونية الحقة .

ولقد ايّدت التكتلات والتحالفات التي حصلت قبـل الانتخابات الأخيرة كل ما سبق وتوقعناه أو أشرنا إليه . فراح « اليمين » يجمع قواه ويكتّلها ولجأ «اليسار» الى العملية نفسها. وتم حصول ذلـك من قبيـل التسابق على خدمة الأهداف الصهيونية وكرد فعل للتهديد العربي في الداخل والخارج بالدرجة الأولى . ولسوف تزول كل الخلافـات المصطنعة بين الاحزاب الاسرائيليـة اكثر فأكثر ، كلما شعرت الصهيونية بدنو الأجل وكلما اثبت الحق العربي المغتصب عن وجوده بمختلف الوسائل التي لديه . ولنا من تاريخ الصهيونية ونشاط أحزابها الاستعماري والارهابي خير دليل على ذلـك . فالعمل المنظم على جميع الجبهات والابتعاد عن التخـاذل هو بمثابة الشرط الاساسي لاثبات الوجود واستعادة الحق المغتصب .

الحواشي

(١) راجع :

MAURICE Duverger, **Political Parties**: Their Organization and Activity in the Modern State. Trans.by B.& R. North, with a Foreward by D.W. Brogan, John Wiley & Sons Inc., New York, 1965

(٢) انظر الفصل الثالث من دراسة :

ALAN Arian — **Ideological Change in Israel** : A study of Legislators, Civil Servants and University Students,

بعنوان :

«Ideologies of Israeli Political Parties», pp. 37-75, Michigan State University, 1966. (Diss.)

وقد استشهد المؤلف في الفصل المذكور بالدراسات التالية وعمد الى تلخيص مقدماتها واساليبها ونتائجها :

* GOODLAND: « A Mathematical Presentation of Israeli Political Parties», **British Journal of Sociology**, Vol. VIII, No. 3, Sept. 1957, pp. 263-266
* GUTTMAN, Louis: «Whither Israel's Political Parties?» **Jewish Frontier**, vol. XXVIII,No. 12, Sect. 2, Dec. 1961, pp. 14-18 .

(غوتمان هو مدير معهد البحوث الاجتماعية التطبيقية في

الجامعة العبرية) .

* ANTONOVSKY — «Ideologia Umamad BeyIsrael
Amot .

* SELIGMAN, Lester G. — Leadership in a New Nation. Political Development in Israel, Atherton Press, Prentice-Hall, New York , 1964 .

(٣) أنظر قائمة المصادر الملحقة بهذا البحث للاطلاع على المصادر والمراجع التي يمكن استقاء المعلومات الواردة اعلاه منها .

(٤) لا بد من استثناء الاحزاب العربية التقدمية لكونها تشذ عن القاعدة بحكم قيامها بعد وجود اسرائيـــل . وفيما يتعلق بالحزب الشيوعي ، الذي انشق مؤخراً الى جناحين ، فان نشأته تعود الى فلسطين في الفترة التي تلت الثورة البلشفية في روسيا مباشرة . وسيأتي الكلام عنه في حينه .

(٥) يبدو ان ميزانية الحزب في اسرائيل هي اكثر النواحي سريـــة في الحياة السياسية . فهي لا تذاع الا في اوساط المقربين والموثوق بهم . انظر :

BADI, Joseph :The Governement of the State of ISRAEL, A Critical Account of its Parliament, Executive and Judiciary, Twayne Publications, Inc. New York, 1963 .

(٦) انظر تصريح اشكول في مجلة

Jewish Observer, Vol. XIV, No. 1, Feb. 1965 .

حيث اعلن بصراحة انه ضد فصل الدين عن الدولة في الوقت الحاضر وانه يؤيد المحافظة على الوضع الراهن . ومن الواضح انه كان يرمي الى كسب تاييد الاحزاب الدينية لحلها على الاشتراك في حكومته الائتلافية .

(٧) « ان اكثر ما يجذب الانظار في اسرائيل ويثير حفيظة الزائرين والمراقبين هو شعبها » . عن النيويورك هيرالد تريبيون ، ٢١ تموز ١٩٦٥ .

(٨) جاء في الكتاب السنوي لإسرائيل (The Israel Yearbook) الذي يصدر بالتعاون مع الدائرة الاقتصادية في الوكالة اليهودية ما يلي : « الماباي هو الفرع المنتسب في اسرائيل الى الاتحاد العالمي للعمال الصهيونيين (Ihud Olami) ويلعب عن طريق ذلك الاتحاد دوراً حاسماً في عمل الوكالة اليهودية والحركة الصهيونية ، وهو عضو في الهيئات التنفيذية لكل من هاتين المنظمتين » . انظر ص. ٢٦٢ .

(٩) أنظر كتاب Kurt Blumenfeld - Erlebte Judenfrage « المسالة اليهودية كما عشتها » — ربع قرن من الصهيونية الالمانية (١٩٠٤ — ١٩٣٣) Deutsche Verlagsanstalt, Stuttgart, 1962

حيث يتحدث المؤلف بالتفصيل عن هذه الامور ويعترف بعدم استجابة الغالبية العظمى من يهود اوروبا الغربية للدعوة الصهيونية ، اذ لم يجد هؤلاء مبرراً للتخلي عن المانيتهم ، مثلاً ، في سبيل اعلان الولاء لشيء وهمي مصطنع او الاعتراف بوجود قضية يهودية موضوعية وقائمة بذاتها . والكتاب المذكور يعج بالامثلة على الذين تربوا على اعتبار انفسهم مجرد هيئة دينية وليس امة تبحث عن دولة أو كيان سياسي . وقد اخذ العمل الصهيوني منذ البداية على عاتقه مهمة كسب اليهود المندمجين منذ عشرات السنين ومسايرة المتدينين لحثهم على البقاء ضمن اطار منظمة الصهيونية العالمية والظهور بمظهر « العمل الموحد » والجسم العضوي المتماسك . وكان الصهيونيون العاملون لا يمانعون في الظهور بمظهر « الحركة الخيرية » و « هيئة المحسنين » والمعمرين والتقدميين في سبيل احداث التحول المنشود نحو تنفيذ مخططات الصهيونية العملية ونواياها الاستعمارية .

(١٠) انظر مذكرات هرتزل ، الجزء الاول ، بالالمانية في مجموعة الآثار الصهيونيـة ، برلين ١٩٣٤ **THEODOR HERZL, Tagebücher**
وقد نقل هذه الفقرة بحذافيرها ناشر كتاب
Israels Weg Zum Staat, Arno Ullmann, dtv dokumente, München 1964.

(١١) انظر المصدر نفسه ـ وقد أخذها عن مجموعة آثار هرتزل الصهيونية (بالالمانية) الجزء الخامس ، برلين ١٩٣٤ .
ARNO Ullmann — **Israels Weg Zum Staat** .

(١٢) أطلقت العبارة التالية على مندلسون اثناء حياته ، وهي تعبر عن المكانة الفكرية التي تمتع بها :
«Von Moses bis Moses war keiner dem Moses gleich »
«Between Moses and Moses there is nobody like Moses»
ومنهم من اعتبرها تصدق على موسى بن ميمون الذي ياتي بين موسى النبي وموسى مندلسون !

(١٣) اقرت الجمعية الوطنية الفرنسية مبادىء التسامح والمساواة في المواطنية في ٢٨ ايلول ١٧٩١ .

(١٤) انظر مقدمة كتاب
ARTHUR Hertzberg (Ed.): **The Zionist Idea : A Historical Analysis and Reader, Doubleday, Herzl Press, New York, 1959**
حيث يصف المؤلف الشعور التفردي لدى اليهود بـ «الآخرية الميتافيزيقية » — **«Metaphysical Otherness»** اذ يقف اليهودي وحده ازاء الانسانية جمعاء .

(١٥) المصدر نفسه – طرح نابليون السؤال التالي بكل صراحـة : « هل يمكن لليهودي ، حين يتم انعتاقه وتحرره ، ان يبقى على ولائه غير المشروط للدولة وأن يخلص لها ؟ »

(١٦) راجـع مقالة ماركس الشهـيرة عن المسألة اليهوديـة Karl Marx, Zur Judenfrage التي كتبها في اوائل عام ١٨٤٤ كرد على مقالات Bruno Bauer التي دعت اليهود الى المعمودية قبل تحقيق التحرر المدني الكامل .

(١٧) كانت دعوة اعظم ممثل لأفكار العصر في روسيا آنذاك ، يهودا ليب جوردون، Yehudah Leib Gordon تتلخص بما يلي ، على حد قوله : « كن يهودياً في بيتك ورجلاً في الخارج » ! انظر Hertzberg المصـدر السابق ، مقدمة ، ص ٢٦ .

(١٨) تأسست عام ١٨٨٤ وانتشرت في رومانيا والمانيا والنمسا والولايات المتحدة وبريطانيا .

(١٩) يبدو ان زعماء المنظمة الصهيونية في غربي اوروبا كانوا ينظرون الى يهود اوروبا الشرقية بمثابة الأداة التي ستنفذ مخططاتهم الاستعمارية . فقد ذكر Blumenfeld في الكتاب الذي أشرنا اليه آنفاً ان فرانز اوبنهايمر حدثه بما يلي خلال المؤتمر الصهيوني الذي انعقد في هامبورغ عام ١٩٠٩ : « عليك ان تعرف ان الصهيونية هي كناية عن عملية حيث نشرف نحن على الاخراج ويقوم اليهود الشرقيون (في اوروبا) بالتمثيل (او التنفيذ) » ويمضي بلومنفيلد في التحدث عن جمل الدعاية الصهيونية آنذاك (١٩١٠) ترفض الطابع الخيري الذي حاولت المنظمة ان تلتسم به وتعمـد الى ابراز

الناحية القومية للحركـة فيقول ما نصه : « افهمني ادولف فريدمان ان الصهيونيين الالمان والاوروبيين الغربيين منهم على الاطلاق يعتبرون بمثابة قادة الحركة الصهيونية . فالصهيونيون الروس والبولونيون تنقصهم الخبرة السياسية ، وفضلا عن ذلك يعيشون في ظل انظمة غير حرة ؛ لذلك تقـع علينا مسؤولية القيادة والتوجيه . واعتقد فريدمان ان الحركة الصهيونية يجب ان تكون منظمة ديمقراطية على الورق فقط . اما في الواقع العملي فيجب على اقلية الصهيونيين الغربيين ان يطبعوا الحركة كلها بطابعهم » اه . انظر المصدر نفسه . ص ٥٢ و ٥٩ .

(٢٠) بقيت هذه الخلافات تسوى بقصـد الحفاظ على وحدة العمل الصهيوني وعلى اساس الامتناع عن الخوض في النقاش والجدل حتى عام ١٩١١ عندما انفجرت حول مقدار الاهتمام بالمخططات الاستعمارية الصهيونية .

(٢١) تصالحت حركة اغودات اسرائيل مع فكرة الدولة الصهيونية منذ عام ١٩٣٧ ! لكن هدفها منذ تأسيسها كان ولا يزال جمع اليهود على اساس التوراة وحل مشاكلهم في « أرض اسرائيل » بروح التوراة . وكانت قـد عارضت الفئات الدينية التي أيدت الصهيونية واعتبرت المزاعم القومية اليهودية بمثابة طريق الخلاص الديني المرتقب . ومما يجدر ذكره ان الحاخام الاكبر الذي تزعم حركة التأثير على اليهود المتدينين لدعم المزاعم الصهيونية في فلسطين كان حاخام فلسطين آنذاك – ابراهام اسحق كوك (١٨٦٨ – ١٩٣٥) Abraham Isaac Kook .

انظر بهـذا الصدد الفصـل الذي كتبـه Isidore Epstein في كتابه JUDAISM, Penguin Books, London, 1964 .

عن « الحركات الحديثة في الدين اليهودي »

(٢٢) نشأ المزراحي كحزب داخل منظمة الصهيونية العالمية بقيادة الحاخام ايزاك جاكوب رينز Isaac Jacob Reines (١٨٣٤ – ١٩١٥).
وكان شعاره الدائم منذ ذلك الحين : « أرض اسرائيل لشعب اسرائيل ، وفقاً لشريعة اسرائيل » .

وجدير بالذكر ان الجناح العمالي للحزب جعل شعاره الانتخابي ما يلي :
« قديم قدم الوصايا العشر وجديد جدة تأميم صناعات الصلب » .

(٢٣) انظر

JOSEPH BADI, The Government of the State of Israel, Twayne Publications, New York, 1963 .

(٢٤) راجع الفصل الرابع من كتاب

OSCAR Kraines .. Government and Politics in Israel, Houghton Mifflin Co., Boston, 1961 .

وعنوانه « الاحزاب السياسية: دورها وتطورها »، ص ٦١ – ٨٤

(٢٥) يجدر بالقارىء الذي يريد التوسع فيما يتعلق بالماباي وتنظيماته وسياسته العودة الى الكتاب السابع في سلسلة « دراسات فلسطينية » : « الماباي : الحزب الحاكم في اسرائيل » بقلم ابراهيم العابد ، منظمة التحرير الفلسطينية ، مركز الابحاث ، بيروت ، ١٩٦٦ . وسوف تصدر في هذه السلسلة دراســة عن مؤسسة الهستدروت التي يسيطر عليها الماباي وتعده بالقسم الاعظم من قوته .

(٢٦) انظر

BEN Halpern — The Idea of the Jewish State, Harvard University Press, Cambridge, Mass.,1961

ص. ١٧ — ١٨

(٢٧) كان ناحام سيكرين Naham Sykrin (١٨٦٧ – ١٩٢٤) الذي حضر المؤتمر الصهيوني الاول عام ١٨٩٧ ممثلا لحزب عمال صهيون في المنظمة الصهيونية ومؤتمرهـا . وكان قد ألف كتاباً بعنوان « المـسألة اليهوديـة والدولة اليهودية الاشتراكيـة » عام ١٨٩٨ بالالمانية : Die Judenfrage und der Sozialistische Judenstaat) وتتميز اشتراكية الرجل بنوع من الطوباوية الاخلاقية ، وليست ماركسية .

(٢٨) انظر المصدر السابق Hertzberg ص. ٣٦٥ .

(٢٩) بالاضافة الى بوروشوف نجد مصدرين آخرين لاشتراكية الاحزاب الصهيونية في تعاليم كل من حايم ارلوزورف Haim Arlosoroff الذي دعا الىاشتراكيةلا ماركسية وتأسس الحزب تحت قيادته. و آرون دافيد غوردون (١٨٥٦ – ١٩٢٢) Aaron David Gordon الذي مزج تعـاليم تولستوي وآراء روسو في تكوين دعوته الى « دين العمل » ، اي العودة الى الزراعة والكف عن لعب دور الوسيط في المجتمع . وقد اعتبر غوردونالعمل اليدوي والجـدي هو الوسيلة الصحيحة لإحداث التفاعل بين الانسان من جهة والطبيعة او الارض من جهة ثانية . لكنه في صوفيته التي ترجع اصولهـا الى التقليد الديني اليهودي نسي ان يأخذ اصحاب تلك الارض بعين الاعتبـار ، او ان اتباعه عمدوا الى تناسي ذلك عن عمد . وقد جاء الى فلسطين عام ١٩٠٤ لكي يمارس دين العمل ويصبح بمثابة الرجـل الاسطوري في نظر الاتباع والمؤيدين . (انظر مقاله في كتاب Hertzberg ، المصدر نفسه ، Our Tasks Ahead الذي يرجع تاريخه الى عام ١٩٢٠ : « ما جئنا نبحث عنه في فلسطـين هو العنصر الكوني » ص – ٣٨١ ، وهو يعني « الارض » التي لا بد من استعمارها واستيطانها لتصبح قاعدة الحياةالصهيونيـة!

وتستمد حركة « العامل الشاب » ، التي اندمجت في الماباي ، أسسها الفكرية من تعاليم غوردون .

(٣٠) بدأت حركة الحرس الشاب في غاليسيا وفيينا عام ١٩١٣ على غرار حركات الشباب الالمانية والحركات الكشفية وانتشرت بعـد الحرب العالمية الاولى في كثير من البلدان (Wandervogel, 1901) وما لبثت ان تحولت الى حركة رواد تهدف الى « تعمير فلسطين » عن طريق انشاء الكيبوتز !

(٣١) مسألة تحالف الماباي مع احدوث هاعفودا «Allgnment» كانت في طليعة الانتقادات التي وجهها بن غوريون وانصاره الى سياسة اشكول في الماباي . فهم يدعون الخوف من ان تؤثر يسارية احدوث هاعفودا على سياسة الماباي المعتدلة في الداخل فيصبح الحزب اسيراً لها . والواقع ان الماباي لايمكنه الوصول الى مقاعد الحكم الا بواسطة الائتلاف مع هؤلاء اليساريين من جهة واليمين المتطرف في « التدين » و « الصهيونية » من جهة ثانية . فمن الواضح ان المسألة لا تمت الى الايديولوجيا بتلك الصلة التي يشاء البعض اكتشافها . والصهيونية لا تتورع عن توسل كل الايديولوجيات والتعاليم الممكنة لتظهر بذلك المظهر الديمقراطي المزيف وتعمل على تحقيق نواياها وأهدافها . ويخطىء كل من تخدعه المظاهر الايديولوجية والادعاءات الاشتراكية ، اذ ان جوهر الصهيونية استعماري وأعمالها الاغتصابية تدل عليها وتفضحها بلا تردد . ولا ننسى ان احدوث هاعفودا قد انشقت عن المابام عام ١٩٥٤ لخلافات عقائدية ، اذ كانت تصر على برنامج سياسي موحد يتناول سياسة اسرائيل تجاه السوفيات والدول العربية والتشديد على المسائل الدفاعية المتعلقة بأمن الدولة . بينما انبرت هاشومر هاتزائير للدفاع عن النقاش الحر داخل الحزب بغض النظر عن وحدة الكلمة والصف والهدف . والمعروف ان هاشومر هي

بمثابة العمود الفقري الماركسي لحزب المابام . بينما نجد احدوث هاعفودا تدعو لفرض الخدمة الاجبارية في المستعمرات – وعلى الأخص فيما يتعلق باستعمار النقب . وقد أصرت على عدم الانسحاب من سينا خلال الاعتداء الثلاثي ولم تتردد في اعلان التهديدات والنوايا العدوانية .

(٣٢) انظر الدراسة التالية عن الحزب الشيوعي الاسرائيلي وتحليــل الاسباب التي أدت الى ازدياد قوته وارتفاع عدد الاصوات التي نالها مرشحوه في انتخابات الكنيست الخامس ، ١٩٦١ :

Moshe M. Czudnowski & Jacob M. Landau.
The ISRAELI Communist Party and the Elections for the 5th Knesset,1961.

وقد صدر الكتاب عن :

Hoover Institution Studies (19)
On War, Revolution and Peace, Stanford University, Hong Kong.

وطبع في هونغ كونغ ، ١٩٦٥

(٣٣) تشكل هذا الحزب عام ١٩٤٨ ، اعضاؤه ينتمون الى الطبقـة الوسطى وأرباب المهن الحرة . ثم عاد واندمج مع الاحرار والصهيونيــين العموميين في « الحزب الليبرالي » عام ١٩٦١ . والحزب الليبرالي (الأحرار) يجمع عضويته من بين منظمات المهاجرين الألمان وقيادته من اوروبا الوسطى . اعتاد نوابه في الكنيست التصويت لصالح الماباي لقاء اشتراكهم في الحكومة الائتلافية والحصول على وزارة العدل . وقد جعل الدعوة الى حكومةائتلاف واسعة توحد العمل الصهيوني وتعمل فوق المصالح الطبقية من صلب برنامجه . وقد انمى الحزب في اندماجه مع التقدميين نفوذاً قوياً في الاوساط الجامعية الاسرائيلية وبعض المنظمات المهنية والتجارية .

(٣٤) من الجدير ان نلاحظ هنا هذه الناحية الهامة من نواحي التقاء الصهيونية والاستعمار : فالصهيونية من وجهة نظر دعاتها العامين هي بمثابة حركة استيطان يقودها الجنس المتفوق لتعمير البلاد التي أهملها اصحابها بحيث تصبح سوقاً للاستهلاك والرخاء . ولا ننسى ان هرتزل تحدث عن تلك البلاد القديمة الجديدة (Altneuland) ورسم صورة للعرب السعداء في دولة المستقبل اليهودية ؛ بينما نجده يفقد السيطرة على اعصابه ، اذ يكشف عن خفايا نفسه ونوايا الصهيونية في آن واحد حين يتحــدث في يومياته « السرية » عن « تشجيع السكان المعدمين الى عبور الحدود بعد ان تسد في وجوههم مجالات العمل والاستخدام » !

ومما لا شك فيه ان الصهيونية – على حــد قول أرسكين تشايلدرز E. Childers تمثل « آخر وثبة ناجحة للاستعمار الغربي الى بلاد غريبة ». انظر مقاله :

« Palestine: The Broken Triangle »,

في Journal of International Affairs

Vol. XIX, No. 1, 1965, pp. 87-100

(٣٥) انظر الدراســة التي ورد ذكرها فيما سبق ، المصدر السابق Alan Arian ص. ٣٨ حيث يزعم المؤلف ان الاحزاب الاسرائيليــة الاخرى لا تماشي حيروت واحدوث هاعفودا (شريكة الماباي في الحكم) في اعتناق هذه السياسة العدوانية .

(٣٦) لا شك ان تاريخ الصهيونية في المانيا حتى وصول النازيين الى الحكم ، وعلى الأخص تلك الفترة التي عاصرها هرتزل والمؤتمرات الصهيونية الاولى ومنظمات الصهيونية في المانيا حتى موقف المانيا من وعد بلفور – هذه الأمور كلها جديرة بأن تدرس بالتفصيل ، اذ لا بد من ان تلقي الضوء

الكثير على موقف المانيا من الصهيونية ونشاطاتها والملابسات التي أدت الى اضطهاد اليهود على أيدي النازيين . وقد تساعدنا على فهم الكثير من علاقات اليهود بالمانيا . وقد عبر هرتزل عن وجهة نظره آنذاك وسجل ما دار خلال اجتماعه بالامبراطور غليوم الثاني في اسطنبول (١٨٩٨) في « يومياته » التي جئنا على ذكرها . وكان قد بعث برسالة الى بسمارك يطلب فيها مقابلته ويلمح الى الموضوع ، فلم يجب بسمارك ابداً . وقد يجدر بمن يريد التعرف على موقف المانيا الامبراطورية من وعد بلفور الرجوع الى مقالة :

Klaus Herrmann: «Political Response to the Balfour Declaration in Imperial Germany»: German Judaism.

The Middle East Journal, Vol. 19, No. 3, Summer 1965 pp. 303-320

(٣٧) انظر المقال التالي عن حيروت وتاريخها وطبيعتها كحزب :

SCOTT D. Johnston: «Politics of the Right in Israel : The Herut Movement»

في مجلة Social Science, Vol. 40, No. 2, April 1965 pp. 104-114

وقد اعتمدنا عليه في كثير من المسائل المتعلقة بموضوع حيروت وماضيها العريق في الارهاب والعنف .

(٣٨) قصة انشقاق جماعة شترن ترجع الى مهادنة الإرغون للانكليز خلال الحرب العالمية الثانية ، اذ اوقفت عملياتها الإرهابية ضد بريطانيا بين ١٩٣٩ – ١٩٤٣ . وقد عاد التحريفيون في تلك الاثناء الى احضـان

منظمة الصهيونية العالمية الأم ـ مما ساهم في اقدام شترن على تفضيل السير في خطى جابوتنسكي والاقتداء بتعاليمه .

(٣٩) انظر Ben Halpern المرجع السابق ، ص. ٤٢ . ويبدو ان المؤلف قد استقى معلوماته ـ كما أشار في حواشي الكتاب ـ عن : Israel Scheib: Ma'aser Rishon الصادر عام ١٩٥٠ .

(٤٠) انظر العـــدد الخاص الذي اصدرته مجلة Esprit الفرنسية : « اسرائيليون يتحدثون عن اسرائيــل » ، ايلول ١٩٦٦ . مقالة Boas Evron بعنوان «Pour une Séparation» ص. ١٧٧ ـ ١٨٧ حيث يريد المؤلف ان يبرهن ان اسرائيل لم تتبع ابداً سياسة تمليها عليها مصالح اليهود ! ولا بد اذاً من التساؤل في نظرنا عن تلك المصالح التي تمثلها اسرائيل .

(٤١) ذكر Johnston في حواشي مقاله السابق ان هنـــاك جريدة صهيونية تخص حيروت اسمها The Jewish Herald رتصدر في جنوب افريقيا ، جوهانسبرج . وقد رفعت على المبنى علماً ترفرف عليه الخريطـــة التاريخية لإسرائيل وقد كتبت عليها العبارة او الشعار التالي : « دولة يهودية باكثرية يهودية على ضفتي الأردن » !

(٤٢) أنظر ما كتبه ماكس نوردو الذي كان بمثابـــة الساعد الأيمن لتيودور هرتزل وألقاه في المؤتمر الصهيوني الاول المنعقد في بازل عام ١٨٩٧ : « اليهود في القرن التاسع عشر » «Die Juden im 19. Jahrhundert» فقـد راح ذلك الطبيب والكاتب يصف حالة اليهود والضائقـــة الاجتماعية التي يعيشونها (Judennot) لكي ينحى باللائمة على دعاة التحرر

والذوبان ويعلن بان « اليهودي المتحرر لا مرساة له ، غير واثق من نفسه في علاقاته مع جيرانه ، يخاف من الاحتكاك بالغرباء ، يشك حتى في المشاعر التي يكنها له اصدقاؤه الخلص » .

« من صهيون الى الديمقراطية البرلمانية »

Arno Ullmann — ISRAELS Weg Zum Staat ,
dtv dokumente, Munich, 1964»

(٤٣) انظر مجلة نيوزويك الاميركية

ISRAEL: The Search for Identity,
Newsweek, 15 Nov. 1965.

(٤٤) انظر مقالة مجلة نيوزويك ، المصدر السابق .

(٤٥) الواقع هو ان الأحزاب الاسرائيلية تجد في غاية الصعوبة ان تدعم مرشحاً شرقياً واحداً بين اكثرية من الغربيين . انظر مقالة :

Edward Bayne — «Development and the cultural
Reinforcement of Class: Israel» pp. 373-397

في كتاب

K.H. Silvert (Ed) Expectant Peoples-Nationalism and Development, Random House. New York, 1963.

(٤٦) انظر

Don Peretz: « Reflections on Israels' Fourth Parliamentary
Elections» — The Middle East Journal, Vol. 14 No,
1 Winter 1960 pp. 15-27.

صفحة ١٥ من المقال المذكور

(٤٧) يجدر بنا أن نتذكر في هذا المقام بان بنجامين دزرائيلي (وهو يهودي الأصل) ، رئيس الوزارة البريطاني المحافظ والذي اصبح لورداً فيما بعـــد ، كان من أبرز دعاة النظرية التي تؤكد على تفوق الجنس الابيض (White man's burden) والتي غدت بمثابة الاســـاس الايديولوجي للامبريالية الاستعمارية . وقـــد برز على المسرح العالمي آنذاك كممثل لهذه الايديولوجية . ومما لا شك فيه ان موقف الاشكنازيم في اسرائيل لا يتعدى كونه صيغة جديدة تتبناها الصهيونية في الكتمان وتعمل على تحقيق اهدافها من ضمن ذلك الإطار .

(٤٨) انظر Erskine Childers المصدر نفسه ص. ٨٧ – ٨٩ وقد أوردها المؤلف كمثال على حجج الصهيونية لإنكار الحقوق العربية في فلسطين .

مصادر البحث

1) AARON, Raymond — «Les Juifs et l'Etat d'Israël», **Le Figaro Littéraire, 24 Fev., 1962.**

2) AKZIN, Benjamin — «The Role of Parties in Israeli Democracy », **The Journal of Politics, XVII, Nov.,** 1955, PP. 507 — 545 .

3) ANTONOVSKY, Aaron— «Political Ideologies of Israelis» (Ideologia Umamad Beyisrael», **Amot**), Mimeograph, 1965.

4) ARYAN, Alan — **Ideological Change in Israel: A study** of Legislators, Civil Servants and University Students. (See: Chapt. 3: «Ideologies of Israeli Political Parties», PP. 37-75), Michigan State University, A Thesis (Microfilm), 1966 .

5) BADI,Joseph — **The government of the State of Israel.** A critical account of its Parliament, Executive, and Judiciary, Twayne Publishers, Inc. New York, 1963 .

6) BLUMENFELD, Kurt — **Erlebte Judenfrage.** Ein Viertel-Jahrhundert Deutscher Zionismus. Deutsche Verlags-Anstalt, Sttutgart, 1962.

7) BOAS, Evron — «Pour une Séparation».ESPRIT. Numéro Special, Sept. 1966, PP. 177-187.

8) BORRIES, Achim von (Hrsg). — **Selbstzeugnisse des deutschen Judentums**, Fischer Bücherei 439,Frankfurt,1962 .

9) BUBER, Martin — **Reden über das Judentum.** Gesamtausgabe, 2. Auflage, Berlin, 1932.

10) CHILDERS, Erskine — «Palestine: The Broken Triangle» in **Journal of International Affairs**: The Arab World: Paths to Modernization, Vol. XIX, November 1, 1965 .

11) CZUDNOWSKI, Moshe & Landau, Jacob — **The Israeli Communist Party** and the Elections for the 5th Knesset, 1961, Hoover Institution Studies on War, Revolution, and Peace (19), Stanford University, (Hong Kong) 1965.

12) DUVERGER , Maurice — **Political Parties** : Their Organization and Activity in the Modern State, Transl. by B. & R. North, 2nd.ed., Science Editions, John Wiley & Sons, New York, 1965.

13) DE GAURY, Gerald — **The New State of Israel,** Chapt. 3: «The Political System of Israel : Policies and Personalities», Derek Verschoyle, London, 1952.

14) EPSTEIN, Isidore — **JUDAISM,** Chapt. 21 — «Modern Movements in Judaism» (PP. 287-318), Penguin-Books, London, 1964 .

15) GAMM, Hans-Jochen — **Judentumskunde.** Eine Einführung. List Taschenbücher, (268), List Verlag, München, 1964.

16) GOODLAND: «A Mathematical Presentation of Israel's Political Parties» in **British Journal of Sociology,** Vol. VIII, No. 3, Sept. 1957, PP. 263-266.

17) GUTTMAN, Louis—«Whither Israel's Political Parties?» in **Jewish Frontier,** XXVIII, No. 12, Sect. 2, Dec. 1961, PP.14-18 .

18) GUTTMAN, Emmannuel —«Citizen Participation in Political Life: Israel», **International Social Science Journal,** XII, 1960 (Unesco), PP. 53 62 .

19) HALPERN, Ben — **The Idea of The Jewish State.** Harvard Middle Eastern Studies 3, Harvard University Press, Cambridge, Mass. 1961.

20) HERTZBERG, Arthur — **The Zionist Idea: A Historical Analysis and Reader,** Ed. with Introd. Doubleday, Herzl Press, New York, 1959.

21) **ISSUES** — Americain Council for Judaism, New York 1965, 1966 .

22) **ISRAEL Yearbook** 1961 — Economic Section of the Jewish Agency, PP. 261-276 .

23) **JEWISH Observer and Middle East Review,** Ed. John Kimche, 1965, 1966 .

24) JOHNSTON, Scott — «Party Politics and Coalition Cabinets in the Knesset of Israel», **Middle Eastern Affairs,** May 1962, PP.130-138.
«Election Politics and Social Change in Israel » **The Middle East Journal,** Summer 1962, Vol. 16, No. 3, PP. 309-327 .
«Politics of the Right in Israel: The Herut Movement» in **Social Science,** Vol. 40, No. 2, Spring 1965, PP. 104-114 .

25) KOCH , Thilo (Hrsg.) — **Porträts Deutsch-Jüdischer Geistesgeschichte.** Verlag Dumont Schauberg, Köln, 1961.

26) KOESTLER, Arthur — **Promise and Fulfilment. Palestine** 1917-1949, Macmillan, Lodon, 1949 .

27) KRAINES, Oscar — **Government and Politics in Israel** Chapt. 4: Political Parties: Their Role and Development» PP. 61-84, Houghton Mifflin Co., Boston, 1961.

28) LE MONDE — «Israel: Terre d'Asile et de Conflicts» March 8-12, 1965 .

29) MARX, Karl — **Zur Judenfrage** (1844) in Marx-Engels I, Studien ausgabe. Philosophie. Fischer Bücherei (764), Ed. Iring Fetscher, Frankfurt, 1966.

30) NEWSWEEK — «Israel: The Search for Identity», Nov. 15th, 1965.

31) New York Herald Tribune — «Integration in Israel», May 31st, 1965, June 21st, 1965.

32) PERETZ, Don — «Refletions on Israel's Fourth Parliamentary Elections», **The Middle East Journal,** Winter 1960, Vol. 14, No. 1, pp. 15-27, **The Middle East Today..** chapters 10,«Zionism» and 11, «The State of Israel», Holt, Rinehart & Wniston,New York, 1963 .

33) RUDY, Zvi — **Soziologie des Jüdischen Volkes,** rowohlts deutsche enzyklopädie (217/218), Hamburg,1965.

34) SELIGMAN, Lester — **Leadership in a New Nation:** Political Development in Israel, Atherton Press, (Prentice - Hall), New York, 1964.

35) **SAFRAN**, Nadar — **The United States and Israel.** chapt. VIII, Part III: «Political Dynamics: Characteristics, Achievements, Problems», Harvard University Press, Cambridge, Mass. 1963.

36) **SILVERT**, K. H — **Expectant Peoples: Nationalism and «Development**, Part I, Chapt. 11: «Devolpment and the cultural Reinforcement of Class: Israel», by Ed. A. Bayne, PP. 373-397; Randon House, New York, 1963.

37) **SELZER**, Michael — «Fighting for a culture», new society, Nov. 26 July 1964 Photostatic copy).

38) **DER SPIEGEL** .. «Israels Eschkol: Staat im Zwiespalt», Nr. 31, 28. Juli 1965, Hamburg.

39) **THIEME**, Karl — (Hrsg.) **Judenfeindschaft.** Darstellung und Analysen. Fischer Bücherei (524), Frankfurt, 1963.

40) **ULLMANN**, Arno — (Hrsg.) **Israels Weg Zum Staat Von Zion zur parlamentarischen Demokratie.** dtv. Dokumente, München, 1964.

41) **ZWEIG** Ferdinand — **The Israeli Worker**: Achievements, Attitudes and Aspirations, Herzl Press & Sharon Books, New York, 1959.

